الإسلام في التاريخ الحديث

تأليف

ولفرد كانويل سميث

تقديم

عبد العزيز رضا

الكتاب: الإسلام في التاريخ الحديث

الكاتب: ولفرد كانويل سميث

تقديم: عبد العزيز رضا

الطبعة: ٢٠٢٣



الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

سميث ، ولفرد كانويل

الإسلام في التاريخ الحديث/ ولفرد كانويل سميث, تقديم: عبد العزيز رضا – الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٣١ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ١ – ٥٧٩ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٦١٦٧ / ٢٠٢٢

الإسلام في التاريخ الحديث



تقديم

"ما من دين استطاع أن يوحي إلى المتدين به شعورًا بالعزة كالشعور الذي يخامر المسلم في غير تكلف ولا اصطناع، وإن الفخر بالعربية قد يمازج هذا الشعور أحيانًا فيعتبر المسلم العربي آداب المروءة قبل الإسلام قدوة للأخلاق والعادات، ويشترك العربي في هذا الفخر ولو لم يكن من المسلمين، فيعنى بالتاريخ العربي قبل الإسلام وبعد الإسلام عنايةَ النسب الأصيل، كما صنع جرجي زيدان وفيليب حتى وغيرهما من مؤرخي العرب المسيحيين. ولكن اعتزاز المسلم بدينه يعم المسلمين على اختلاف القومية واللغة، وكون الإنسان مسلمًا باعث من بواعث الحمد تسمعه من جميع المسلمين".

هذه الفقرة للمستشرق الكندي "ولفرد كانويل سميث" تلخص رؤيته ونظرته إلى الدين الإسلامي والتي أفرد لها كتابا هو "الإسلام في التاريخ الحديث".

مؤلف هذا الكتاب هو السيد ولفريد كانتويل سميث أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة مونتريال، وقد كان مديرا لمعهد الدراسات الإسلامية، ورئيسا لقسم الدين المقارن بجامعة «ماجل» في مونتريال، وقد أقام لفترة طويلة من عمره في مدينة لاهور بالباكستان، وتنقل في بلاد الشرق الأوسط وبعض الدول الإسلامية عربية وغير عربية، في قارتين آسيا وأفريقيا، وتغلب عليه نزعة يسارية تتضح من خلال تفسيراته المادية للظواهر التي يدرسها ويتوقف أمامها.

وقد ولد عالم العقيدة والأديان "ولفرد كانويل سميث" في ٢١ يوليو ١٩١٦ في مدينة تورونتو الكندية، وتوفي في نفس المدينة في ٧ فبراير ٢٠٠٠.

وهو واحد من أبرز المتخصِّصين في ميدان الدراسات الدينية، وبالتحديد في فرعَي الأديان المقارنة والدراسات الإسلامية. نال شهادة الدكتوراه من جامعة برنيستون، وكان موضوع رسالته هو: "مجلة الأزهر: تحليل ونقد". وقد أكد أنه راجع أعداد المجلة قبل أن يؤلف هذا الكتاب، وقال إنه لا ينظر إلى الآراء الخاصة التي تنشرها المجلة للعلماء ولغير العلماء إلا من زاوية واحدة، وهي الزاوية التي تشير إلى اتجاه عام يتقبله المسلمون كافة أو تتقبله جمهرة منهم على التعميم، ورأيه في الأستاذ الخضر أنه يمثل المدرسة السلفية بمنهج الدفاع عن الإسلام، وأن الأستاذ فريد وجدي مجدد عصري لا تزال طريقته في التجديد على قواعد المعرفة الحديثة مقبولة عند أنصار التجديد، وإن يكن بعض آرائه منظورًا إليه اليوم كأنه تفكير فات أوانه وظهر بعده ما هو أوفق منه لزمنه، ولا اختلاف بين الأستاذ وجدي ولا بين السلفيين أو المجددين المتأخرين في رأي واحد يتفقون عليه، وهو أن العلم الحديث لا ينقض حقائق الإسلام، وأن القليل منه عند المتعلمين المتعجلين هو الذي يغريهم بالانصراف عن العقيدة الدينية، ولكنهم لا ينصرفون عنها، بل يزدادون إيمانًا بها، مع التوسع في العلم الحديث، والتوسع في العلم بالدين.

وقد أصدر سميث خلال حياته عددًا من الكتب منها على سبيل المثال «الإسلام الحديث في الهند» و«تحليل إجتماعي» و«الإسلام في العالم الحديث» و«الاسلام في التاريخ الحديث» ومن كتبه المتأخرة "نحو لاهوت

عالمي: الإيمان وتاريخ الأديان المقارن" (١٩٨٩) و "ما هو النص المقدَّس: منظور مقارن" (١٩٩٣) وجميع كتبه منشورة ضمن إصدارات جامعة برنيستون.

والفكرة الأساسية في أعمال "ولفرد كانويل سميث" تتمثل في أنه ليس ثمة جوهر ثابت للدين الذي لا يتغيَّر بتغيُّر الزمان أو المكان، ويقيم سميث تقابلًا بين الإيمان وما يسميه بالتقليد المتراكم. فالايمان شخصيٌّ وجوانيٌّ، بينما التقليد المتراكم هو التجلي الجماعي للأول في العالم (الممارسات الدينية، والأعراف، والقواعد الأخلاقية والقانونية، والأساطير، والنصوص المقدَّسة... إلخ). ويعطي الأولوية للأول على حساب الثاني في تشكيل التجربة الدينية. وهو بذلك يغفل عن العلاقة الجدلية بين الإيمان والتقليد، حيث إن كليهما يشكِّل الآخر. وقد أعطى سميث الأولوية للإيمان الشخصي والجواني واعتبر أن التقليد مجرَّد إطار ذهنيٍّ وليس نمط حياة وممارسة، قد أدى به ذلك الاعتقاد إلى استبعاد مسألتين بالغتي الأهمية بالنسبة إلى الدراسة المقارنة للأديان: أهمية الممارسة والضبط الجسدي في التقاليد الدينية المختلفة، والاعتماد المتبادل بين مفهومَي الدين والأيديولوجيا العلمانية، والتوتر القائم بينهما باعتبارهما مفهومين حديثين.

هذا الكتاب:

يشتمل الكتاب على فصول عن الهند وباكستان وتركيا والبلاد العربية، كما عرض لبعض الأمم الإسلامية الأخرى، ومهد للبحث كله ببعض الملاحظات العامة التي لا بد منها في رأيه للحكم الصحيح على وجهة التفكير

الإسلامي ونظرة المسلمين إلى وقائع الحاضر وآمال المستقبل، ولم يخطئ في الكثير من هذه الملاحظات وإن كان قد أحاطها بشيء من الإغراب يوهم القارئ الأوروبي أن هناك أمرًا غير طبيعي في «النفسية» الإسلامية عند المقابلة بينها وبين المؤثرات الدينية في غير المسلمين.

وهو يقرر المؤلف أن قيام المسلم بمسايرة الحضارة الحديثة لا يزال مصحوبًا بكثير من التحفظ والحذر في علاقته بأصحاب هذه الحضارة؛ فإنه لا ينسى أن دول الحضارة الأوروبية هي التي أخضعته لسيطرتها منذ أواسط القرن الماضي، واقتحمت بلاده عليه في الوقت الذي ثار فيه على حكوماته الوطنية؛ طلبًا للإصلاح والأخذ بأسباب تلك الحضارة التي أرادها خالصة من شوائب الاستعمار، بريئة مما يناقض الدين.

ويعتقد ولفريد سميث أن المواطن الغربي لن يستطيع أن يفهم الإسلام جيدا إلا إذا أدرك أنه أسلوب حياة تصطبغ به معيشة المسلم ظاهرًا وباطنًا، وليس مجرد أفكار أو عقائد يناقشها بفكره أو يتقبلها بغير مناقشة، فليس التفكير بنافع شيئًا إن لم يكن مصحوبًا بتطور المعيشة وتطور أسلوب الحياة الظاهر والباطن في المجتمع الإسلامي الحديث.

ويستعير المؤلف اسم المعتذرين **Apologetics** لرواد النهضة الإسلامية الحديثة؛ لأنهم – كما يرى – يسلكون المسلك الذي جرى عليه الآباء المسيحيون في صدر الدعوة المسيحية للرد على الفلاسفة والمفكرين الذين اشتهروا يومئذ باسم المعرفيين، وأرادوا أن يجعلوا مذهب المعرفة ديانة تقابل الديانة المسيحية وتتغلب عليها في مجال البحث عن الحقيقة الدنيوية والحقيقة الأخروية.

وقد كان المعتذرون **Apologetics** يردون على المعرفيين بإثبات العقائد الدينية من الوجهة العلمية أو وجهة المنطق ومباحث ما وراء الطبيعة، فلما شعر المسلمون بصدمة العلوم الحديثة كان مسلك الرواد الأوائل من طلائع نهضتهم كمسلك أولئك المعتذرين، وكان همهم الأول حقبة طويلة أن يثبتوا سبق العرب والمسلمين إلى كشف الحقائق العلمية، واستعداد العقيدة الإسلامية لقبول الحقائق العلمية التي تسفر عنها أبحاث العلماء المعاصرين.

مصر في الكتاب:

زار المستشرق الكندي "ولفرد كانويل سميث" مصر أكثر من مرة، ففي نهاية أربعينيات القرن العشرين أقام بها لفترة لكي ينجز رسالته للدكتوراه عن مجلة الأزهر، وتعددت زياراته بعد ذلك، وفي إحدى الزيارات ألقي محاضرتين في القاعة الشرقية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة في مساء يومي ١٩ و٢٠ فبراير سنة ١٩٥٨، وكان موضوعهما مرتبطا بموقفه وفكرته عن الدين الإسلامي، وكان موضوع المحاضرة الأولى هذا السؤال: «هل يجب أن يكون للأديان الكبرى أسماء؟» وقد وصل المحاضر إلى أنه من الصعب وضع تعريف عام للدين، لأن هذا الاصطلاح لم يرد في الكتب السماوية أو في العبرية القديمة وأن اليهود هم أول من قال إن هناك دينًا واحدًا هو الصحيح. وقال إن الدين إذا أخذ على أنه اعتقاد كان من أسباب البعث والحركة والإيجابية، أما إذا فهم على أنه منهج واصطلاحات كان جامدًا غير إيجابي.

أما موضوع المحاضرة الثانية، فكان هو الآخر سؤالًا: «هل الإسلام اسم لدين؟» وذهب في ذلك أنه أخذ أسمه من القرآن، وأنه أعم الأديان السماوية

جميعًا، وقال إن اللغة العربية هي خير وسيلة لفهم القرآن، ولكنه أخطأ خطاء جسيما حين قال إن محمدًا الذي أوجد الإسلام، فلم يكن مُحَّد عليه الصلاة والسلام إلا رسول كما جاء في كثير من آيات القران ، ويؤخذ على المؤلف في محاضرته قوله إن الإسلام تأثر بالأديان المعاصرة وهي فكرة قديمة للمستشرقين تولى الرد عليها كثير من قادة الفكر في العالم الإسلامي.

ولم يخصص الكتاب فصلا خاصا بمصر، فقد نظر إلى العرب كلهم نظرة واحدة، وفي هذا الكتاب خصهم بالفصل الثالث منه، وأرجع التوجس العربي من الغرب إلى الاستعمار الإنجليزي والفرنسي، ضاربا المثل بإطلاق السفن البريطانية نيرانها على الإسكندرية سنة ١٨٨٢ بغية القضاء على ثورة عرابي عندما قام لإصلاح الحكم الداخلي في بلاده، كذلك قذفت الطائرات الفرنسية المدن السورية سنة ١٩٢٥ حين طالب السوريون بالحكم الذاتي، وقد بلغ العداء الغربي للعرب مداه بإقامة دولة إسرائيل. وفي نفس الفصل توقف عند تجربة مجلة الأزهر ودورها في بيان وبلورة الفكر الإسلامي الحديث.

عبد العزيز رضا

مقدمة

يمر المجتمع الإسلامي اليوم – شأن بقية الجنس البشري – بمرحلة انتقال خطيرة، والذي يميز هذا المجتمع أن أعضاءه يواجهون الحياة العصرية، بحيرتها وفرصها، بوصفهم ورثة تقليد فريد. والسمات المميزة لهذا المجتمع هي: إيمان وإسلام، وماض عظيم. ويعالج هذا الكتاب ما يجري في هذا المجتمع وهذه العقيدة من تطور.

إن التطورات التي حدثت في العالم الإسلامي، في التاريخ المعاصر، كثيرة وجوهرية لدرجة تجعلها تدق على الفهم، سواء بالنسبة للمسلمين أنفسهم الذين شاركوا بإندفاع فيها أو بالنسبة لغيرهم، على أن هذا الفهم لا غنى عنه للمسلمين حتى يتمكنوا من مشاركة واعية فيما تستهدف له حياتهم من تغيير، ولغير المسلمين حتى يقيموا صلاتهم بالعالم الإسلامي على دعائم من الفهم والإدراك وللفريقين معًا لتيسير أتصال كل منهما بالآخر.

وما دامت أولى مميزات العالم الإسلامي هي أنه «مسلم» فقد مهد لهذه الدراسة بمحاولة بيان ما تعنيه هذه الخاصية المميزة، وإنها لتعني الكثير مما يتصل بالتاريخ الحديث، وإن المرء ليستطيع أن يميز وسط ضروب الإختلاف والتباين القائمة في أنحاء العالم الإسلامي، شيئًا عامًا ومشتركًا فيه يكفي في القليل، لتبرير القول بأن التاريخ الإسلامي ما زال حثيث الخطى، وأن المجتمع الإسلامي اليوم، هو إلى حد كبير نمو لماضيه القريب. وقد

أعقب هذا التمهيد دراسة الأوضاع القائمة في الأقطار الإسلامية، واحدًا بعد الآخر، وأن هذه الدراسة لتقطع بأن فهم الأحداث الجارية في العالم الإسلامي إنما يتضمن فهما لصفتها الإسلامية، وليس المقصود بذلك شيئا شكليًا أو مفروضًا، بل على العكس من ذلك، فالقول بأن العامل الإسلامي كان ذا أهمية في مجريات الأمور في هذه الأمم، معناه أنها من صنع أفراد مسلمين، فالتاريخ في أساسه ما هو إلا النشاط الإنساني برغم تأثره جزئيًا بقوى غير شخصية.

إن عقيدة المسلم، صفة وشكلًا، لتؤثر في تطور مجتمعه سياسيًا وإقتصاديًا إلى غير ذلك من ضروب التطور الأخرى، والكتاب من ناحية، مشاركة في بحث سياسي إقتصادي إجتماعي ومن ناحية أخرى لا تتعارض مع الأولى، هو دراسة في الدين المقارن والمعاصر، تهدف إلى الكشف عن الطبيعة والأهمية الحاضرة لعقيدة أحد المجتمعات وشرحها.

والكتاب مقدم على السواء، للقارئ غير المسلم والقارئ المسلم. فالدراسات الدينية المقارنة تعمل اليوم على دعم الصلات بين الأمم.

الفصل الأول

الإسلام والتاريخ

لقد عمر الإسلام ثلاثة عشر قرنًا، ومع ذلك فإن الأوضاع القائمة في العالم الإسلامي لتقترن بفكرة تطور الإسلام تطورًا طويل الأمد.

إن التنبؤ بما سيكون عليه الحال في المستقبل لا يمكن التعويل عليه بالنسبة لما تستهدف له الأوضاع الإجتماعية من تحول جوهري بدأ فعلًا، ومع ذلك فإن نبوءة واحدة تبدو معقولة، هي أن التاريخ سيكون مختلفًا بالنسبة لنا جميعًا.. فالحياة على كوكبنا مليئة بضروب من الجدة، مشاكل واحتمالات وأحلام وتهديدات جديدة.

دور الإسلام في العالم

وليس الغرض من هذه الدراسة التنبؤ بما سيئول إليه الأمر في المستقبل، وإنما تهدف إلى مجرد توجيه الإنتباه إلى أن دور الاسلام في العالم بصدد تحول مما كان إلى ما سيكون، وأن المرء ليجهل، بل ولا حاجة به لأن يعلم، ما سيكون، ولكن في الوقت نفسه يستطيع أن يرقب مرحلة التطور المعاصرة، والتي يتكون في أطوائها الغد المرتقب، يستحيل فيها تراث الماضي إلى بشير المستقبل.. وقد يتناول غير المسلم هذه المرحلة بالدراسة والتحليل والتفسير، ولكن على المسلمين واجب المشاركة في ذلك، إن

أكثر فصول التاريخ الإسلامي أهمية، سواء بالنسبة للمسلمين أو لغيرهم ومرحلة التطور الحالية.

وإن صح هذا، فهل هو جدير بالذكر والاعتبار؟ قد يرى البعض هذا القول تافهًا، وقد يحتجون بأنه يصدق على نشاط الناس جميعًا. مسلمين وغير مسلمين كما يصدق على كل مراحل التاريخ وهل كانت الحياة – حياة الإنسان أو حياة المجتمع – إلا اللحظات المبدعة الخالقة، التي ينبثق منها، لحظة بعد أخرى، الجديد من بين أطواء الماضي المتراكم، ألم يكن التاريخ دائمًا متمثلًا فيما تعنيه كلمة «الآن» كلما استعملها الإنسان؟ ألم تأت كل شخصية أو جماعة أو نظام أو مدينة متوسطة بين ضغط ماضيها وإحتمالات المستقبل؟ وإذا كان الأمر على هذا النحو دوامًا، فلماذا يعتبر شيئًا خاصًا بالقرن العشرين وبالإسلام ويجعل من عصرنا مرحلة تحول خطير، وتضخم من تأثر الإسلام بهذه الأزمة؟

إن هذا البحث لينتهى بنا إلى الإجابة عن هذا التساؤل، إن مظهر عقيدة المسلمين وتطورها وحركتها لم يكشف منه إلا القليل.

من المتفق عليه أن كل شيء في العالم موضوع للتغير المستمر، إلا أن الذي يميز عصرنا سمتان: الأولى أن التحول يتم بسرعة كيفًا وكمًا لا كمًا فقط، والثانية أن هذا التحول أو التطور يتم لأول مرة على نطاق واسع وبشكل واع.

فلم يسبق في تاريخ البشرية أو تطورها، إن كان التغيير على ما هو عليه اليوم سرعة وشمولًا ووضوحًا، ومنذ اليوم على الإنسان أن يوقن بأن

عليه أن يعيش حليف التحول والتغير في جميع نواحي نشاطه ونظمه سواء أكان هذا التحول إلى أحسن أو إلى أسوأ وهذا التحول سريعًا فقط بل وواعيًا أيضًا، وعليه كذلك أن يسيطر على ما يطرأ على حياته من تغيير.

الإسلام وعالم اليوم

على أنه بالإضافة إلى أن الإسلام في أسلوبه الحديث يشترك في وضوح مع بقية عالم اليوم، نجد ثمة اعتبارات أخرى خاصة بالإسلام وحده، من شأنها أن تساعد على إيضاح خصائص التجربة القاسية التي يجتازها المجتمع. وهذه العوامل الإسلامية النوعية أو الخاصة لم تحظ ينصيب ملحوظ من عناية الكتاب الشرقيين أو الغربيين على السواء، على حين أنه يجب عرضها بعناية تتفق ومانوليه الأزمة الحالية من إعتبار.

إننا في حاجة إلى فهم شامل وواضح لماهية الإسلام، وماهية الحياة العصرية، إن أردنا فهم حالة العالم الإسلامي الحديث، ولقد ثار الجدل حول شدة وطأة الغرب أو القرن العشرين على الإسلام، كما لو كان الإسلام شيئًا جامدًا قابلًا للتأثير بطريقة سلبية.. والواقع أن الإسلام أيضًا قوة، وكان في حركة منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنًا. أن وطأة الإسلام لتشتد على المسلم الحديث ومجتمعه كما تشتد عليه من ناحية أخرى وطأة «العصرية».

لقد قدمنا أن العصر الحاضر يعتبر خاصًا بالنسبة للتاريخ الإسلامي، وما من شك في أنه فريد من هذه الناحية، وأكثر أهمية من بعض الوجوه من أي عصر آخر، وفي رأينا أن التطور التاريخي بوجه عام يعتبر «خاصًا»

بالنسبة للإسلام، إذ نظرة الإسلام إلى التاريخ نظرة فريدة فهو بشكل أو بآخر أكثر أهمية للمسلمين منه لأي جماعة أخرى.

الدور العلمي للإسلام

إن الدور العملي للإسلام في التاريخ الحديث (أو في أي مرحلة من مراحل التاريخ) لا يمكن إدراكه إدراكًا كاملًا، ما لم ندرك الدور النظري للتاريخ في الإسلام وبالمثل ليس في المقدور الإلمام بالدور الذي يؤديه الإسلام في المجتمع حتى نلم بدور المجتمع في الإسلام.

ومرة أخرى، فلكي نفهم الوضع الحاضر في العالم الإسلامي يتعين أن نفحص الإسلام نفسه. إذن.. فما هو الإسلام؟

لنبدأ بالقول بأن الإسلام دين، فهذا القول يعني الكثير بل أكثر مما قد يستطيع أحد منا أن يدرك.. إنها الحقيقة الأساسية التي يجب أن يبدأ منها الإدراك في هذا الميدان، ذلك أن جميع الأديان أو العقائد العظمى في العالم لا نهائية ولا حد لعمقها أو تفرعها أو إختلافها وتنوعها، وكل دين إنما يمثل النقطة التي يلتقي عندها المؤمن خلال وسط من التقاليد والعرف بأبدية الله وهو الوسيلة المثلى التي يسيطر بها الله على الإنسان، بالقدر الذي يسمح به الإنسان نفسه. ومهما أختلف المسلمون، عمقًا أو سطحية إعوجاجًا أو إستقامة إثمًا أو طهرًا، فالإسلام هو الحياة الدينية لكل فرد منهم.

وإنه ليبدو للمراقب الخارجي أمران نتيجة لسمو الدين وطبيعته الشخصية العميقة، الأول أننا نسفه أي دين من الأديان، إذا ركزنا

اهتمامنا على مجرد شكله الخارجي وحده. فالشكل الخارجي ليس إلا النافذة الرئيسية التي يرى المؤمن خلالها ما يستطيع أن يراه للحياة من معنى وغاية، ولنفسه وأقرانه وما بينهم من علاقات متبادلة، من معنى أخير، وهكذا فعلى الباحث ألا يقف عند مجرد مراقبة شكل وتركيب النافذة، بل عليه أن يجاوز ذلك إلى التثبت مما يمكن أن تتيحه هذه النافذة وراء ذلك من منظر للمتعبدين فيها وفي المسائل المتعلقة بالسلوك، يجب على الباحث ألا يكتفي بإدراك ما يأتيه المتدينون من عمل، بل بما يرونه من قيمة لعملهم وسبب ذلك، ولا يكفي لمعرفة الإسلام أو لمعرفة أي دين آخر، الإلمام بنظمه وأنماطه وتاريخه، بل يجب الإحاطة بما يعنيه هذا كله لدى معتنقيه.

حقيقة تاريخية لإدراك الدين

ونتيجة أخرى لما تقدم، هي التنوع الذي لا حد له في كل عقيدة رئيسية.. فإلى حد ما، يمثل كل دين كل الأشياء لكل الأفراد، ويختلف معنى الدين الواحد وطبيعته الداخلية من شخص إلى آخر بحسب قدرة الشخص ومدى استجابته، وإذا جاوزنا الرموز إلى معانيها، أدركنا أن كل دين، عند تحليله، إنما تتعدد أشكاله بعدد معتنقيه إنها حقيقة تاريخية، أساسية لا غنى عنها لإدراك الدين وتاريخه، فإن مواد بعينها قد يختلف مدلولها بإختلاف الأشخاص. إن الحقيقة التجريبية لكل عقيدة هي ما تنتهي إليه الرموز فيها في كل حالة على حدة.. وليس ثمة حد أو تعريف لتفسير أن الاستعداد الروحي لكل فرد وظروفه وميله أو تخيله يمكن أن يسير وفق نظام بصرف النظر عن جمود الطريقة التي فرض بها، وفي

الإسلام نجد أن هذه المرونة حقيقية وخاصة في الحركة الصوفية.

وواضح أن الإسلام، ما كان يقدر له أن يصبح، عبر القرون واحدًا من الأديان الأربعة أو الخمسة العظمى في العالم، ما لم يكن، كالأديان الأخرى من سماته العمق والحكمة. ومالم يكن ملائمًا لظروف الحياة وقد رأت الأفراد وأمانيهم المختلفة.

فالإسلام إذن دين، شأنه شأن الأديان الأخرى يسمو على التعريف إذ يتصل أحد طرفيه بعظمة الله التي لا حد لها. وينتهي طرفه الآخر بالبشر على تنوعهم وتباينهم.

عقيدة شخصية حية

على أن الإسلام ليس مجرد دين، بل دين خاص، إن تعذر تعريفه في الوسع بيان خصائصه والإسلام في حقيقته عقيدة شخصية حية، تتجدد كل صباح في قلوب المسلمين، وهذه الحقيقة مميزة أيضًا، ولابد من محاولة لبيان خصائصها، ولو أننا في هذه المحاولة سنغفل الكثير من الظلال المتنوعة. والكثير من الإستثناءات وأن أفضل مجمل للإسلام يرجى الوصول إليه، هو ما كان مجردًا عامًا، من الناحية الشكلية لذاتية الإسلام غير الشخصية، فإن ذلك يقرب الطبيعة الداخلية للدين. لو أنها جردت، لا من الأشكال الخارجية، بل تعنيه هذه الأشكال لدى المسلمين. وإنه لمن قبيل المجازفة الشاقة لغير المسلم أن يقرر شيئًا في هذا النطاق. ومع ذلك فهي أمر لابد منه طالما أن إدراك الوضع الحالي للمجتمع الإسلامي يستدعي الإلمام بالإسلام نفسه.

والإسلام عند المسلم دين الله وهذا يعني أشياء كثيرة، من بينها أنه لم يبدأ في القرن السابع الميلادي، بل بدأ مع الخليقة نفسها، أو هو سابق عليها. فعندما خلق الله العالم، رسم لقوى الطبيعة نظامًا محكمًا تسير وفقه ولا تحيد عنه، فعالم الطبيعة ليس له أي إختيار. وإنما عليه الطاعة التامة لأوامر الله الأزلية، وجعل الله من هذا النظام مظهرًا للهداية ودليلًا على عظمته وجبروته.

أما بالنسبة للإنسان، فله أيضًا نموذج، عليه أن يسير على منواله في الأمور المتعلقة بشخصه وبالمجتمع الذي يعيش فيه. وهناك نمط من السلوك السليم تجاه الله الذي خلقنا وإليه معادنا، وآخر تجاه الناس وطريقة مثلى للحياة. ويختلف الإنسان عن سائر المخلوقات بما وهب من وعي وحرية، فليس ثمة جبر أو إلزام، فهو وحده الذي منح ميزة الإختيار بين أن يطيع وأن يعصى وهنالك صلاح وإستقامة أزلية. ولكن لا إجبار فيها.

والواقع أن هذه الحرية تنطوي على مسئولية خطيرة، ومن الحق أن نقول أن الإنسان وحده رضى أن يحتملها، وقد أشار القرآن إلى ذلك إشارة رمزية في الآية الثانية والسبعين من السورة الثالثة والثلاثين (الأحزاب) بأن الله عرض ميزة الإختيار على السماوات (والقوى الروحية – الملائكة) وعلى الأرض والجبال (عالم الطبيعة) فأبينها وأشفقن منها وحملها الإنسان. وهكذا نجد الله قد رسم طريقًا. لا إجبار فيه، لما ينبغي أن يكون عليه مسلك الإنسان في الحياة الدنيا طوبى لمن ألتزمه. والويل في الآخرة لمن صدف عنه.

على أن الله لم يدع البشر دون هداية في أمور معاشهم. بل على النقيض من ذلك. فما إن خلق الإنسان حتى أوحى إليه بشريعته وفي الإسلام آدم أول نبي (رسول) ومؤدى ذلك أن الله خلق الإنسان في الكون. وأنزل عليه في الحال رسالته متضمنة ما يأتي وما يدع من أعمال، مبينة الصواب والخطأ .. وهكذا بدأ تاريخ البشرية بمعرفة الإنسان للحدود التي ينبغي له أن يلتزمها في كل ما يعمل، ثم تقدم التاريخ مقترنًا بفشل الإنسان في التزام هذه الحدود فقد كان آدم عصيًا، وخلف بعده خلف أهملوا الرسالة، أو نسوها أو أضاعوها أو حرفوا فيها، حتى أتي على البشر حين من الدهر لم يكونوا فيه يعرفون طريق الله على أن عدم اتباع الإنسان الحق في حياته لم يعد مجرد زهد فيه، بل استحال إلى جهل به وأخذ يتلمس الطريق إلى ما يعتقد أنه الحق. وشاء الله برحمته أن يخرج الإنسان من حيرته فأرسل من يحمل رسالته إلى الأرض من جديد. رسولًا آخر يذكر الناس بالتعاليم السابقة. ثم يعيد التاريخ نفسه. ويهمل الناس الرسالة وينسونها ويحرفون فيها، ويرسل الله رسلًا آخرين برسالته، لا يدري أحد عددهم وكان المعروف أنهم كانوا كثيرين من مختلف الأقطار والأقوام. حتى لقد أختص كل قوم بنذير ومع إختلاف الرسل، كانت الرسالة واحدة لا تتغير.

وكان من بين الرسل الذين أرسلهم الله، عدا آدم، إبراهيم وموسى وعيسى تقبلوا أوامر الله ودعوا الناس إلى قبولها، لم تلق دعوتهم نجاحًا كاملًا، ومع ذلك فقد كانت ذات أثر ملحوظ ونتائج أبقى من غيرها، والواقع أن أتباعهم ما زالوا إلى اليوم بين ظهرانينا بتعدادهم الضخم،

يكونون الجماعات اليهودية والمسيحية.

وكان عمل إبراهيم ضخمًا عظيمًا، أعلن عن وجود الله وسيادته وحده، ومنذ ذلك الحين لم تنس البشرية أن الله وحده خالق الكون وأنه وحده الخليق بالعبادة، ومنذ ذلك الحين ومذهب الوحدانية الذي أسسه إبراهيم بقي قائمًا، أما الآلهة الزائفة، والأوثان التي أنكرها إبراهيم فما زالت كذلك لدى فريق كبير من البشر.

وهكذا كانت أول خطوة نحو استرداد التاريخ اعتباره، ولكن بقيت خطوات.

ثم جاء موسى، وحافظ أتباعه على الرسالة، واتخذوا الخطوة الثانية لوضعها موضع التطبيق عبر القرون، لقد عرفوا وحدانية الله وشريعته، أو في القليل عرفوا أن الله شريعة على الإنسان أن يلتزمها، إلا أنهم لم يتقبلوا الرسالة بكامل قلوبهم، وعلى مر الأيام حرفوا في نصوصها، وأصبح كتابهم غير صحيح وفضلًا عن ذلك فقد تورطوا في خطأ جسيم بما اعتقدوا من أن تعاليم الله كانت موجهة إليهم وحدهم بدلًا من أن يدركوا أنها كانت رسالة السماء إلى الناس كافة.

ولإصلاح ذلك الخطأ الجسيم أرسل الله رسولًا آخر، هو عيسى، وقد أدرك أتباعه أن الرسالة موجهة إلى البشرية كافة ومضوا ينشرونها في حماسة في جميع البقاع، ولكنهم بدورهم وقعوا في خطا شنيع، إذ عبدوا الرسول بدلًا من الاهتمام بالرسالة، والإسلام ليس عيسى إلا بشرًا رسولًا، اصطفاه الله، كما أصطفى غيره من البشر لحمل رسالته إلى الناس، وأيده بمعجزات من لدنه. ومع ذلك فقد عمد أتباعه رغم فرط دهشته ورغم معارضته، إلى

إضفاء صفة الألوهية عليه وعلى أمه، ونسبوا إلى الله الفاحشة في خلقه، ومضى المسيحيون بعده، عبر الأجيال والقارات، يركزون اهتمامهم في شخص "المسيح" بما ينطوي عليه ذلك المسلك من إهمال جزئي لله الذي نالوا من سموه وعلاه، وما ينطوي عليه من ناحية أخرى من إهمال للقاموس الأدبي الكامل.

رعاية الله تحيط البشر

ومرة أخرى يؤكد الإنسان تعثره وفشله برفضه المستمر لهداية الله وتحريفه لرسالته، ولم يكن ذلك مجرد عجز عن تبين الحق من الباطل، بل كان يرفض هذه الهداية عندما تأتيه، وإلى هنا يبدو تاريخ البشرية قصة تبعث على اليأس، ولكن رعاية الله لم تتخل عن الإنسان، ولآخر مرة يرسل الله رسالته إلى البشر، بينة واضحة ويصطفى رسولًا آخر يحملها إليهم، ويفسرها لهم.

وفي هذه المرة لم يكن ثمة خطأ أو تحريف أو إهمال، بل إعلان أخير لما ينبغي أن يكون عليه مسلك الإنسان ووظيفته في العالم ولم يكن ذلك مجرد واقعة منفصلة أو البيان الجامد للحق الخالد، فقد سبق القول بأن الحق سبق إظهاره، والعظيم في هذه الحالة هو الواقعة متصلة بنتيجتها وهي تطبيق هذا الحق وتجسيمه في تاريخ البشرية منذ ذلك الحين.. ولم يكن الأمر مجرد إعادة بيان لما يشاء الله أن يبلغه للناس بل كان مجتمعًا متطورًا نشأ حول هذا البيان مجتمعًا مدركًا للوصايا الموحاة، مكرسًا نفسه للعيش وفقًا لها، ومن ثم يعمل على إعادة بناء الحياة البشرية على الأرض ولم يكن

هذا المجتمع بالمغلق، بل كان يبدى ترحابًا حارًا بالعالم كله، ويدعوه للمشاركة في هذا العمل العظيم بل في أعظم الأعمال.

انتشار الرسالة

وهكذا نزل الإسلام الذي وجد منذ الأزل، إلى التاريخ في القرن السابع الميلادي، وبدأ دوره النهائي الكامل بين الناس وقد حفظت الرسالة بدقة هذه المرة في القرآن في لغة عربية فيها جمال وإعجاز وكان أول مجهود مثمر ونافع في سبيل التنفيذ، هو المجهود الذي بذلته الجماعة الصغيرة التي عملت بقيادة مُحَمَّد رسول الله ثم ثابرت من بعده على العمل داخل بلاد العرب أولًا ثم في الأقطار المحيطة بها في منطقة الشرق الأوسط، ثم امتدت بعد ذلك في موجات موفقة إلى أقاليم العالم المختلفة، وأخذت على عاتقها تنظيم حياتها ومجتمعها وفق تعاليم الله.

كانت هذه الجماعة تتكون في البداية من سكان مدينتين في بلاد العرب ثم شملت العرب الآخرين وحملت الإسلام إلى أمم كثيرة متباينة اللغة والجنس واللون والجو. إنها تتميز عن باقي البشر بأنها تقبلت الرسالة، وآمنت بها حين رفضها الآخرون. ومنذ ذلك الحين عرفت بأسم «المسلمين» وبظهور هذه الجماعة أندفعت فكرة الإسلام في العالم مترجمة إلى عمل منظم مستمر، وهكذا ولد عصر جديد في تاريخ البشرية.

التقويم يعقب القوة

ولا يبدأ التقويم الإسلامي بمولد مُحَمَّد كما هو الحال في التقويم المسيحي، ولم يبدأ ببدء تلقيه الوحي، وإنما في العام الذي شرع فيه المجتمع

المسلم يتخذ شكل القوة السياسية، فما إن هاجر مُحَمَّد والجماعة القليلة من أتباعه من مكة إلى المدينة، حتى جعلوا من أنفسهم مجتمعًا ذا حكم ذاتي، ومن هنا يبدأ تاريخ الإسلام.

وإذا كان العرض السابق موفقًا من الناحية الموضوعية في تبيان وجهة نظر المسلمين، فقد بقي أن نتقدم بآرائنا الخاصة وما لدينا من تحليل لهذه الوقائع وتعليق عليها.

إن المسلمين ليهتمون بالمجتمع والتاريخ اهتمامًا خاصًا لا يتوفر لغيرهم، فالقرآن عند المسلم مقدس، وكذلك مجتمعه وتاريخه إذ أن المجتمع الإسلامي مجتمع يسير وفق هداية الله وتعاليمه. وعلى من يريد أن يصبح مسلمًا أن ينضم إلى هذا المجتمع ويشارك بقية أفراده في العمل على تحقيق رضوان الله في هذه الأرض، ولا يقل هذا العمل أهمية عن الوحي، بل إن امتياز المشاركة في ذلك والعمل عليه ليتصلان بصميم عقيدة المسلم.

وفي هذا الإتجاه يصبح الإنسان قريبًا من الله، ويتم مصير البشرية، بقدر ما يقرب العمل من الخير والخير هنا هو أسلوب الحياة الذي يتخذ من القرآن وحيه، ومن المجتمع الإسلامي تعبيره، ويقترب الإنسان من الله بمشاركته في الجهد الإسلامي أو محاولة المجتمع الإسلامي تحقيق مملكة الله في الأرض.

إن التاريخ الإسلامي بالنسبة للمسلم، شأنه شأن العقل في الديانات اليونانية القديمة، وشخص المسيح في الدين المسيحي يعتبر بمثابة القنطرة التي تصل بين الإنسان والأبدية وعند المسلم يقوم الصلاح متوسطًا بين

الإنسان والله، وفي السلوك الخلقي يلتقي المخلوق والخالق.

الدين والمجتمع

وقد لاحظ المراقبون ما للمجتمع من وظيفة ضخمة وعظيمة في الإسلام. وإلى الآن لم تنل أهمية التاريخ الإسلامي، الذي هو المجتمع نفسه في حالة الحركة ما تستحق من تفكير. فمعروف ما ينطوي عليه المجتمع الإسلامي من تضامن ملحوظ، فتماسك أعضائه وولاؤهم شديدان، وليس المجتمع الإسلامي بالوحدة الإجتماعية فحسب ولكنه أيضًا وحدة دينية تمتزج فيها (الكنيسة والدولة) على حد التعبير الغربي ويقوم على العقيدة الفردية، وهو بعد ذلك مظهر المثل الأعلى الديني حتى ليمكن القول بأن النظام الإجتماعي فيه وما يتصل به من ضروب النشاط ليس إلا مظهرًا عمليًا لعقيدة المسلم الشخصية، فعضوية الفرد المسلم في مجتمعه ليست بالشيء المتميز أو المضاف أو التابع، وإنما هي مظهر لإسلامه الشخصي.

ومن الناحية الإجتماعية والعملية والديناميكية في العقيدة الإسلامية أو بعبارة أخرى، أن تفاعل هذه العقيدة مع التطور التاريخي ليتضح في أكثر من ناحية. فمن المسلم به أن الخلاص في الإسلام وليد الإيمان لا الأعمال، ولا يتوقف خلاص المسلم على إتيان العمل الصالح، بل على علمه وهو يأتيه بأنه عمل صالح ينبغي عليه أن يقوم به.

المسلم الصالح

وقد اختلف المسلمون فيما بينهم، إلا أن الخلاف بينهم لم يكن يتصل بأصول الدين وإنما في الغالب كان حول طرق ممارسته، والمسلم الصالح هو

الذي يستطيع أن يعبر عن إعتقاده تعبيرًا عمليًا يتفق والقانون أو الشريعة.

ويبدو الخلاف بين الفرق الإسلامية واضحًا في حالة المذاهب الشرعية، على أن نواحي النزاع الأساسية في الإسلام تنصب أساسًا على الإتجاه الذي يأخذه التطور التاريخي الإسلامي.

والفكرة الأساسية هي أن المجتمع الإسلامي في حركة وتطور ويتصل بهذه الفكرة أن الفرد يجب ألا يشذ عن المجموع، أو يرتد عن عقيدته، بينما تكون القيادة فيه مسئولة عن معرفة المجموع للطريق القويم وأتباعهم إياه، وفي سبيل هذه «المعرفة» يوجد «العالم» و«المفتي» ومن أجل هذا «الأتباع» وجدت «الخلافة والإمامة» وعلى أي حال فالمسألة الإسلامية الأساسية هي (ما هو الشكل الذي يتخذه التاريخ الإسلامي؟)

الإسلام والماركسية

إن التاريخ على قدر كبير من الأهمية بالنسبة للإسلام، إن المسلمين يعانون كثيرًا من الضيق في حاضرهم، أما تاريخهم الماضي فيتيح لمن يطلع عليه أن يشرف على عالم تقاربت فيه ماهية الدين وكيانه، حتى لتبدو الحقيقة الدينية، وهي وليدة الإيمان لدى المسلم، متعادلة والحقيقة التاريخية.

وتاريخ الإسلام على الأرض يمتاز في قرونه الأولى بالقدر الكثير من التوفيق والعظمة والإبداع، سواء من الناحية الدنيوية أو من الناحية الروحية امتلأ بالغزو والفتح، فتحت ضربات جيوش المسلمين هوت إمبراطورية فارس تبعتها معظم ولايات الإمبراطورية الرومانية، بل أفضل هذه الولايات، واتسعت رقعة الإسلام تدريجيًا حتى أصبحت تمتد من جبال

«البرينيس» غربًا إلى «هيمالايا» شرقًا. ففاقت رقعته رقعة الإمبراطورية الرومانية اتساعًا.

على أن التاريخ الإسلامي لا يمتاز في هذه القرون بالقوة فحسب، بل بالعظمة أيضًا ولم تكن المسألة مجرد جيوش منتصرة ومعارك فحسب، وإنما كانت هذه الجيوش تحمل معها مدنية جديدة، فكان ثمة تقدم في العلوم والفنون، واللغة والآداب والتشريع والإدارة والتجارة، إلى غير ذلك من ضروب التقدم والرقي لقد كان فتحًا بناء تمامًا، تمخض عن مجتمع عظيم جديد أكتملت فيه عناصر القوة والمجد.

قوة التشريع

وقد كان النجاح، فوق ما تقدم دينيًا، وقد تداخلت عدة عناصر في تكوين المدنية الإسلامية، من العرب والإغريق والثقافات السامية المنحدرة من الشرق الأدنى القديم وإيران والهند، وعمل العرب على مزج هذه العناصر جميعًا، مزجًا متجانسًا ثم ساروا بها في تقدمهم، وقد طبع الإسلام كل نواحي الحياة في هذه العصور بطابعه، وكان التشريع الديني مركز القوة الموحدة التي تولت تنظيم كل شيء في الحياة من أول الصلاة إلى حقوق الملكية، فأضفى التشريع بذلك وحدة على العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه، فكانت مهمة الإسلام بناء نوع من النظام الإجتماعي يتفق وأوامر الله.

وفي ذلك يختلف الإسلام عن المسيحية، فقد وجدت هذه في قرونها الأولى عقيدة للطبقة الدنيا تتولى عملية التنظيم، وكانت في «بلوريتاريا» في الإمبراطورية الرومانية، على حين كان الإسلام عقيدة الطبقة الحاكمة، ولم

تضطلع المسيحية بوضع نظام اجتماعي إلا بعد وقت طويل من تاريخ ظهورها، أما مهمة تنفيذ هذا النظام فقد ألقيت على عاتق الآخرين.

التطور الحالي للتاريخ الإسلامي

ولنعد الآن إلى ما كنا بصدده من تقدير للتطور الحالي للتاريخ الإسلامي، فقد رأينا كيف حمل الرعيل الأول من المسلمين العبء كاملًا في جميع النواحي الحكومية والثقافية، كانوا جماعة عاشت على ما أراد الله لها أن تعيش فلازمتهم بركته، وكان هذا النجاح اللامع دليلًا على صحة العقيدة كلها، لقد كان التاريخ مؤيدا للعقيدة، وهكذا يستمر التاريخ في طريقه. وإذا كان من الحق بالنسبة للإسلام أن برنامجه كان ناجحًا فترة من الزمن، فمن الحق أيضًا أن ذلك كان لبعض الوقت فقط، فقد قامت مدنية العرب وازدهرت فترة ثم تداعت وتأخرت، ويعين سقوط بغداد في سنة ١٢٥٨ النهاية الرسمية للإمبراطورية العربية الناجحة، على أن هذا التاريخ مجرد رمز إذ استمرت الثقافة العربية في إزدهارها مدة قرنين آخرين في المناطق التي لم يصل إليها الغزو المغولي وخاصة القاهرة وإسبانيا والذي يعنينا من كل هذا هو أن الواقعة قد وقعت وانتهى التاريخ الإسلامي القديم إلى نهايته.

وكانت هذه أول أزمة ضخمة في التاريخ الإسلامي. وبقي الإسلام بعد هذه الأزمة في العصور الوسطى التي تفصل تاريخه القديم عن تاريخه الحديث، ولم تحظ هذه الفترة بما تستحق من عناية المؤرخين المسلمين أو الغربيين.

وكان انتشار الصوفية من أنواع التجديد التي طرأت على الإسلام إبان هذه الفترة من تاريخه وفضلًا عن ذلك فقد أعتنق الغزاة الذين غزوا البلدان الإسلامية الدين الإسلامي، مما قوى قضية الإسلام بدلًا من إضعافها – كما حدث بالنسبة للمغول في مدي خمسين سنة من غزوهم– وهكذا وجد الإسلام في هذه الفترة من التاريخ أقوامًا وثقافات جديدة ساعدت على تقدمه، وإذا كانت الروح العربية قد خبت في ذلك الوقت، فسرعان ما عاود الإسلام ازدهاره على أيدي الفرس والأتراك بصور تختلف عما عرف من قبل سواء في ميدان الحكم أو السياسة أو الإقتصاد أو التنظيم الإجتماعي أو الثقافي، وكان ذلك في تركيا وإيران والهند، كما اتسعت رقعة الإسلام من الناحية الجغرافية والناحية الروحية، وتولت الموجة الثانية حمل العالم الإسلامي إلى شمال آسيا الصغرى والبلقان ووسط آسيا وإلى زنوج أفريقيا في الجنوب وأندونيسيا في الشرق، كانت موجة من الجيوش أو من البعثات الدينية.

وعلى أي حال، فالحقيقة أن الإسلام استعاد قوته وإزدهاره في القرن السادس عشر. لقد كانت نهضة قصيرة الأمد بالنسبة لنهضته الأولى. وتوقف المجتمع الإسلامي عن التقدم. ثم كان التأخر الخطير في القرن الثامن عشر. وبدأ العالم الإسلامي كما لو كان قد فقد القدرة على تولي أمر حياته وتنظيمها، وفقد فجأة قبضته القوية العظيمة على العالم وواضح أن هذا التأخر كان في نفس الوقت الذي نهضت فيه أوروبا، وخطت مدنيتها خطوات واسعة في تاريخ البشرية، خطوات ملؤها الحيوية والمهارة والقوة.

وفي ذلك الوقت كان الغرب بصدد إعادة تشكيل حياته ثم حياة العالم كله بعد ذلك بقليل وحوالي سنة ١٨٠٠ كان ضغط الغرب شديدًا على مراكز القوة الباقية في العالم الإسلامي، وفي غضون القرن التاسع عشر زاد الضغط والإستعمار، فالهولنديون في أندونيسيا، والبريطانيون في الهند وجهات أخرى، والروس في أواسط آسيا والفرنسيون في أفريقيا، كانوا جميعًا يحكمون المجتمع الإسلامي، أما تركيا وإيران فقد بقيت لهما السيادة السياسية، سيادة جعلت منهما دولتين مستقلتين وان لم تكن ثمة حرية فيهما.

إن ما أحطنا به عن ماهية وطبيعة الإسلام، وظروفه ومجتمعه بما فيه من لحظات صاعدة وهابطة في تاريخه يعتبر تمهيدًا لموضوعنا الرئيسي وهو: حالة الإسلام وديناميكيته في العالم الحديث.

الفصل الثاني

الإسلام في التاريخ القريب

للإسلام في العصر الحديث مشكلة وأزمة، فالمسلمون يحسون أن خطأ ما وقع في تاريخهم، فانحرف به عن طريقه السوي وإن ثمة مفارقة بين الدين الذي أنزله الله وبين التطور التاريخي للعالم الذي يسيطر عليه ويصرف أموره، إنهم يفكرون في كيفية تقويم ما أعوج من تاريخهم حتى يعاود سيره من جديد في كامل قوته، وحتى يستعيد مجتمعهم ما ينبغي أن يكون لمجتمع يتولى الله هدايته من قوة وازدهار.

وتتناول الفصول التالية بالتحليل مركز الإسلام في الأقطار الإسلامية الرئيسية منذ الحرب العالمية الثانية بوجه عام، مما قد يوضح ما كان للإسلام من أثر روحي فيما تم من تطورات وما كان لأحداث التاريخ من أثر في التطور الروحي للإسلام في العصر الحاضر.

الوهابيون في بلاد العرب

أتخذت الحركات الإسلامية في العصر الحديث شكل الحملات على الإنحلال الداخلي، فدعت إلى وقف ذلك التدهور، وأهابت بالمجتمع الإسلامي أن يعود إلى ما كان عليه في أيامه الأولى من طهر ونظام، وكانت حركة الوهابيين في القرن الثامن عشر أقوى هذه الحركات وأبقاها أثرًا إلى اليوم. وكانت تتسم بالتشدد في الدين، والقوة والبساطة. وتدعو إلى العودة إلى الإسلام الأول.

وتقوم الدعوة الوهابية على رفض الإنحلال بما لازمه من فساد وتهاون وأساليب الحياة والثقافة التي سادت في العصور الوسطى إنها تنكر الصوفية والمذهب العقلي سواء في الفلسفة أو الدين كما تنكر إنقسام المسلمين إلى فرق ومن بينها فرقة «الشعبية». إنها لا تدين إلا بالشريعة الأولى، فهي خلاصة العقيدة وزبدتها، بشر الوهابيون بوجوب بعثها من جديد بعد تخليصها مما استحدث فيها على مر القرون، وبناء مجتمع لا يسود فيه غيرها، فهذا هو الإسلام عندهم وما عداه تزيد وباطل، ثم جاوزوا مرحلة التبشير والدعوة إلى مرحلة التنفيذ والعمل. فتحالف ابن عبد الوهاب – منشئ المذهب الوهابي – مع ابن سعود أحد الأمراء الحاكمين المحليين، حتى يسير النظر والعمل جنبًا إلى جنب.

وقد تمكن الوهابيون بشيء من الصعوبة، بفضل بعدهم وسط بلاد العرب، من التجرد من بيئة العصور الوسطى (الإمبراطورية العثمانية) التي اقتنعوا بضرورة التخلي عنها، واستطاعوا أن يقيموا لأنفسهم وسط الصحراء مجتمعًا يحمل تعاليم الله من حيث تركها من سبقهم من المسلمين تعاني من التشويه والتخريف، وسارت الأمور على هذا النحو إلى أن اكتشفت آبار البترول على حدودهم في سنة ١٩٣٠ فأخذت مظاهر الحياة العصرية تتسرب في حذر إلى داخل بلادهم مما لم تظهر نتائجه بعد، وقد اتسمت به عقيدتهم من تشدد في الطهر، وسمحت لهم عزلتهم بتنفيذ تجربتهم في يقظة نسبية ولكنها لم تحل دون ذيوع تأثيرهم وقوته، حيث كانت ترد من المدن المقدسة تقارير تثير السخط مؤداها أن إسلامًا غثًا صلبًا يجري تطبيقه بدقة خطورة.

وليس المذهب الوهابي بالمثالي البحت، بالمعنى الذي يقصده الغربيون من هذا التعبير، إذ أن هذا النظر أفلاطوني ومسيحي، فالإصلاح الوهابي لا يعتمد على القرآن كمصدر وحيد له، بل على القرآن والسنة الخالصة المحققة، ونستطيع أن نخلص من ذلك إلى أنهم لا يتعلقون بالقرآن كفكرة خالصة وانما كما طبق تطبيقًا أصيلًا وصحيحًا، أو كما يقول الغربيون تطبيقًا مثاليًا، وقد عارض الوهابيون تفسير الإسلام على النحو الذي كان سائدًا بإعتباره الغايات التي وضعها الله للبشر كما وردت في القرآن وكما هي مطبقة في المجتمع. وكما سبق أن أكدنا، ليس الإسلام عند المسلمين بالفكرة المجردة، وإنما هو الفكرة في وضعها العملي. ولقد رفض الوهابيون النحو الذي جرى عليه العمل، وليس فكرة أن الإسلام عمل وممارسة.

ولقد سبق القول أن دعوتهم كانت للشريعة، وكان تفسيرهم لها جامدًا وضيقًا، على أن الدقة تقتضي القول بأنهم دعوا إلى طاعة الله وإلى المجتمع الممتثل لأوامره، وكان تركهم الكائن إلى ما يجب أن يكون، والواقع إلى المثالي، وما وصل إليه الإسلام على يد المسلمين إلى ما يجب أن يصل إليه قويًا باعثًا للحياة ومحررًا، وجاوزت أمواج تأثيرهم نطاق مجتمعهم وقوتهم العملية. وبينما كان بينهم ثمة محافظون، نادي آخرون بالعودة إلى القرآن، والعودة إلى السنة، بمعنى العودة إلى رب القرآن وأوامره وإلى روح السنة وفرقها.

وظهرت حركات تطهيرية أخرى تنكر الفساد والإنحلال في المجتمع الإسلامي، وكان من أبرز أمثلتها الحركة التي قامت في دلهي بالهند على يد «شاه ولي الله» الذي عاصر إنحلال إمبراطورية المغول، فبدأ تفكيره ونشاطه

– على نقيض أبن عبد الوهاب – من داخل إحدى إمبراطوريات العصور الآفلة لا من خارجها، وآثر الإصلاح والإحياء على الرفض والإنكار.

كانت نظرة ولي الله إلى الإسلام الخالص تحتفظ بلون صوفي ملحوظ، فقد أنكر ما ساد في عصره من انحلال وفساد في ممارسة الصوفية، وانحراف النظر الصوفي المتطرف، كما هاجم التساهل وعدم الإكتراث الذي سمح – من الناحية الدينية – بقيام مجتمع متدهور، ومع ذلك فقد كان صوفيًا، واجتهد في إيجاد تفسير يجمع بين الصوفية الخالصة والسنة الخالصة، وكان في إسلامه أكثر وعيًا وأغزر مادة ومرونة من الوهابيين. فمثلًا نراه يحض ويعمل على إنعاش المدارس المختلفة للشريعة في مزيجه الجديد، وكان أكثر تقبلًا للتطور، وأقرب إلى تفكير العصور الوسطى منه إلى التفكير التقليدي القديم.

وقد أصر ولى الله على أن المسلم الحق يجب ألا يقبل الانحطاط المعاصر، وكان يتطلع من الناحية السياسية إلى إنشاء دولة إسلامية في الهند على شاكلة دولة المغول، إذ المجتمع الإسلامي الجديد يجب أن يستعيد قوته. ومضى قرن قبل أن تنتظم أفكاره الإصلاحية حركة اجتماعية سياسية في عهد ابنه عبد العزيز ثم حفيده إسماعيل، وبزعامتهما. ومنذ ذلك الحين بدا الضعف يتسرب إلى المجتمع الإسلامي الهندي، وخاصة من ناحية قوته السياسية حيث كان الضعف يغري بالإعتداء الخارجي، ففي الشمال الغربي من الهند وثب نظام «السيخ» القوي المتزايد بما بقي من حكم المغول، كما نزل البريطانيون في البنغال، وكانت الهند الغربية مسرحًا للنهضة الهندوسية.

وهكذا اتجهت حركة النهضة الإسلامية اتجاهين مختلفين: الأول: ضد الانحلال الداخلي، والثاني: ضد التهديد أو السيطرة الأجنبية.

الأفغاني

ويتمثل هذا الإتجاه في جمال الدين الأفغاني (١٨٣٩ – ١٨٩٧م)، كان جمال الدين الأفغاني يمثل الآراء الحديثة في الإسلام، مع إلمام شامل بالدين الإسلامي، حتى لقد كان – بحق – المسلم العالم في عصره.

ومن الناحية الجغرافية، فقد شمل دوره إيران والهند والعالم العربي وتركيا، فضلًا عن البلاد الغربية الأوروبية، وكان يجمع بين الصوفية والسنية، عاد إلى مصالحة الشيعة، ربط بين العلوم الإسلامية التقليدية والآراء الأوروبية الحديثة، وكان نشاطه يتجه الوجهتين معًا: الإصلاح الداخلي والدفاع ضد القوى الخارجية، وقد آزر الحركات الثورية السياسية وشجع العلماء ومدهم بالكثير من آرائه حتى غلب طابعه على العالم الإسلامي، أدرك أن العالم الإسلامي مهدد بقوة الغرب ونشاطه، وإذا كان المصلحون المتقدمون ينادون بأن علة تأخر المجتمع الإسلامي فيما ينطوي عليه تكوينه من خطأ، فقد نادى جمال الدين الأفغاني بأن العلة هي ضعف هذا المجتمع دون أي شيء آخر، وقد شارك مشاركة فعلية في جميع الحركات الوطنية خاصة في إيران في سنتي ١٨٩١، ١٨٩٦. وفي مصر في الثورة العرابية سنة ١٨٨٢، وطوف بالبلاد الإسلامية يلهب حماسية المسلمين ويبعث فيهم وعيا جديدًا، ويذكرهم بأمجاد الماضي وقوته، وكانت نظرته إلى الغرب تختلف كذلك عن غيره من المصلحين، إذ رأى فيه خطرًا

جديرًا بأن يتقي ويقاوم وفي نفس الوقت مثالًا – وخاصة في الناحية العلمية – خليقا بأن يحتذى.

وثمة عنصر آخر ظهر في دعوة جمال الدين الأفغاني، كان يذكر المسلمين بأنهم وحدهم المسئولون عن مستقبل الإسلام، وعليهم أن يغيروا ما بأنفسهم حتى يغير الله ما بهم، فكان يخلق فيهم الشعور بالمسئولية، ويحثهم على العمل المتصل وينهاهم عن التكاسل، كان على يقين من أن الإسلام لابد مستعيد أمجاده وعظمته.

ولم يكن لجمال الدين الأفغاني خطة واضحة، أو فلسفة منظمة، ولكنه كان يتميز بنشاط جم وقدرة على إذكاء حماسة الآخرين، وقد أضحى هذا النشاط سمة مميزة للتطور الإسلامي منذ ذلك الحين، بدت في كتابات الشاعر «إقبال»، والخاكسار في الهند، والكاشاني في إيران، ودار الإسلام في أندونيسيا. والواقع أنها طبعت الإسلام الحديث بطابعها إلى مدى كبير.

تطورات تالية

وكان تطور الاتجاهين السابقين فيما بعد، قويًا منتشرًا في شكل حركات أخرى يتصل الكثير منها بطريق مباشر أو غير مباشر بحركات الوهابيين، وولي الله والأفغاني في حين يبدو بعضها مستقلًا عنها. وإنه لمن الزيف أن نغالي في تبسيط الحركات الإسلامية الحديثة فنسلكها في نموذج واضح شائع، وفي نفس الوقت، من الخطأ أن نستبعد من خصائص كل من هذه الحركات، الشكل والدافع العاميين اللذين يربطان بين كل منهما وبين الماضي ويصلان كل حركة منها بغيرها من الحركات.

ونذكر من بين هذه الحركات، حركة السنوسي في ليبيا (سنة ١٨٤٢)، والمهدي في السودان (سنة ١٨٨١)، والحركات التي قامت في إيران وقد سبقت الإشارة إليها، والمحمدية في أندونيسيا (سنة ١٩١١)، وهكذا. وكان لكل من هذه الحركات المحلية أسبابها المباشرة سواء من الناحية الإقتصادية أو السياسية أو غير ذلك من النواحي الخاصة بالمنطقة التي ظهرت فيها. وكل منها تناسب التاريخ المحلي ويتعين دراستها على هذا الأساس. وإن كانت جميعًا تشترك فيما تشير إليه من إتجاه إلى ازدهار جديد ومقاومة التدخل والضغط الخارجي.

وتشهد حركة الخلافة الهندية (١٩١٨ – ١٩٢٤) التي أثارت حيرة غير المسلمين بمدى التوتر العاطفي الذي يلازم إدراك المسلمين لتدهور قوة الإسلام التقليدية، وإنما لتبين الرغبة في الكفاح من أجل النهوض.. هذه الرغبة التي لم يكن لها ثمة برنامج واضح.

هذه هي الحركات السياسية، وقد حظى مزاج المسلم الحديث بتعبير فني تصوري، وقد لاحظنا جمال الدين الأفغاني وكيف كان يعبر عن أحلام المسلمين بمجدهم القديم، ومنذ ذلك الحين وهذه النغمة تتطور في العالم الإسلامي. وقد تمثلت في الكثير من أشعار «جالي» ونثر «الأمير علي» «في الهند» و«جورجي زيدان» و«شكيب أرسلان».

ولكي نحيط بحقيقة هذه الاتجاهات يجب أن نلم بعاملين رئيسيين كان لهما شأن كبير في هذه المرحلة من التطور وهما «التحرر» و«القومية».

التحرر

وفي الطور الثاني للتطور الإسلامي، ازدهر إتجاه في مستهل هذا القرن، إتجاه نحو التحرر الإسلامي، وقد شارك في ظهور هذا الإتجاه عنصران من عناصر الثقافة الإسلامية الماضية هما الفلسفة والصوفية، فالمذهب العقلي الذي يتصل بالفلسفة والمذهب الإنساني الذي يتصل بالصوفية قدما أسسا هامة لتفسير الاسلام تفسيرًا جديدًا، وهذا هو سبب عدم ثقة المحافظين في هذين العنصرين حتى لقد نادوا بأن بعث الإسلام الأول يقتضي القضاء على هذين العنصرين وقد رأينا أن العصر الحديث في الإسلام بدأ بهذا البعث.

وقد قضى الوهابيون على العلم الروحاني، قضاء كان تأثيره واضحًا في العالم العربي، هذا على الرغم من أن أبن عبد الوهاب نفسه كان صوفيًا في وقت ما، لم يكن شاذًا في ذلك إذ كان كل مصلح إسلامي يعتد به في العصر الحديث متأثرًا بالصوفية مثل «الأفغاني» و«مُحَمَّد عبده» و«إقبال».

وقد اشتركت كل من حركتي الوهابيين وولي الله، في مقاومة المذهب العقلي مما كان له أثره في ضعف الجانب العقلي للإسلام الحديث، وإذا كانت الصوفية لم تحظ بقبول كامل لدى زعماء الدين فالمذهب العقلي لم يكن مقبولًا على الإطلاق، وقد رأى بعض المسلمين في نشر مقدمة الفكر اليوناني في العالم الإسلامي تهديدًا للدين أكثر من تهديد الصليبيين أو غزوات المغول، وكما سبق أن أوضحنا، كان المشرع المسلم يقابل معلم اللاهوت في المسيحية على أنه المذهب العقلي، برغم ما ناله من ضعف

وسقم قد أستعاد في السنوات التالية لبداية هذا القرن بعض الإزدهار بمستقبل أفضل.

وتدخل عامل ثالث في حركة التحرر الإسلامي ترك أثره في الدين. ونقصد بذلك تأثير المدنية الغربية، فمنذ أواخر القرن التاسع عشر حتى الحرب العالمية الأولى كانت حركة التحرر الأوروبي قد بلغت مداها، وكذلك كان النفوذ الأوروبي قد بلغ ذروته، وقد زار كثير من المسلمين البلاد الغربية، وعادوا إلى بلادهم وقد امتلأوا إعجابًا بما شهدوا هناك من روح وقيم، وخاصة الطلاب الذين قضوا في البلاد الأوروبية سنوات في طلب العلم في جامعاتها. وكان ذلك سببًا في نقل الكثير من الغرب إلى العالم الإسلامي، فظهرت به آراء واتجاهات وقيم حديثة وكان أن أدخلت في البلاد الإسلامية في ذلك الوقت، أو فرضت عليها طائفة من النظم الإجتماعية والسياسية والقانونية العربية، لقيت ترحيبًا من بعض المسلمين، ومعارضة من آخرين، وفي النهاية اعتنقها كثيرون. واستمر التطور.

وسبق أن رأينا أن الغرب كان ينظر إليه في بادئ الأمر على أنه تهديد خارجي للمجتمع الإسلامي ثم أصبح اتباع الأساليب الغربية في المجتمع الإسلامي ينظر إليه كتحول أشد خبثًا وخطورة في تهديده

هذا المجتمع، ويمثل «طابورًا خامسًا» في داخله. والذي يعنينا أنه وجدت وجهتا نظر تسيران جنبًا إلى جنب وترحب إحداهما بالتحرر العربي بالفعل مفضلة أسمه، وتبذل محاولات للتوفيق بينه وبين الإسلام، وفي كثير من الأحيان، كانت هذه المحاولة مجيزة لا خالقة، فكانت تسمح للشخص

أن يجمع بين التحرر الغربي والإسلام بلا تعارض بينهما.

واتسعت حركة التحرر وأتخذت أشكالا جديدة تختلف باختلاف الأشخاص الداعين لها من أمثال الحاج أجوس سالم وآخرين في أندونيسيا، والسير سيد أحمد خان والأمير علي وشبلي وأبو الكلام أزاد في الهند، ومُحَّد عبده وطه حسين من أصحاب الأسلوب العقلي في مصر، وسانجو لاجي وآخرين في إيران، وشينازى ونامق كامل وعبد الحق حميد وتوفيق فكري وغيرهم في تركيا وكان هؤلاء وغيرهم يمثلون بعضًا من نواحي التطور الآخذ في الأتساع، ولا ريب أن مسلم اليوم يختلف عمن سبقه من المسلمين، نتيجة لتأثره بأمثال هؤلاء الكتاب والمفكرين الذين أثاروا فيه جرأة عقلية وروحية، فأصبح على بينة من أمر نفسه وربه والعالم الذي يعيش فيه.

ولم تلبث حركة التحرر هذه أن ضعفت في البلاد الإسلامية، فيما عدا أندونيسيا وتركيا قبل الحرب العالمية الأولى، ثم عاود قادتها نشاطها على عالم إسلامي متحرر، وظهرت كتابات الأمير علي وطه حسين وهيكل والعقاد وغيرهم ممن يعتبرون بحق مفسرين لهذه المبادئ وهادين لها حتى غدا التحرر سمة من سمات الإسلام وجزءا من بنائه.

على أن التحرر العقلي في الإسلام الحديث، سواء أكان نتيجة لمؤثر خارجي أم داخلي، ومهما كان مدى نشاطه لم يخل من ضعف لازمه، مرده إلى أنه لم يتكون بشكل يسمح له بمواجهة العقيدة الإسلامية في تكوينها.

وإذا نظرنا إلى حركة التحرر في نطاقها العام، بدا لنا أنها كانت قبل

الحرب العالمية الأولى ضعيفة شاحبة، تخضع لأهداف الإسلام، ومن ثم فقد كان تأثيرها عليه أقل بكثير من تأثرها به بل إنها أدت إلى تقوية نظرة الإسلام إلى هذا العالم، وخاصة في مبادئها الإنسانية، وأنتهى مظهرها العقلي إلى القومية والمعاذير وقوة الدين. التي أصبحت تمثل الإتجاهات الإسلامية في العصر الحديث.

الحركات القومية

من الواضح أن الحركات القومية في البلاد الإسلامية أصبحت قوية وجامعة وقد استهدف شطر كبير من نشاط هذه البلاد مقاومة الإستعمار الأجنبي، وكان قادة هذه الحركات متأثرين بروح الغرب والروح القومية في التاريخ الإسلامي القديم.

وقد بدت هذه الحركات القومية جامحة تهدف إلى التخلص من التدخل الأجنبي، ولم تكن هذه الحركات مطابقة للإسلام فحسب، بل هي جزء لا يتجزأ من فكرة بعث الإسلام. فنضال الأندونيسيين المسلمين للتخلص من الهولنديين، وكفاح السوريين ومسلمي المغرب للتخلص من الإيرانيين للقضاء على منطقة الفرنسيين، ونضال مسلمي الهند ضد البريطانيين، كل ذلك كان جزءا من حركة المسلمين لبناء مجتمع إسلامي في العصر الحاضر. من هذا القبيل قيام الأتراك لطرد اليونانيين في سنة ١٩٢٢، والإيرانيين للقضاء على منطقة النفوذ الروسية الإنجليزية.. كانت جميعها خطوات نحو إحياء الإسلام، فكل المسلمين مسلمون إجتماعيًا وسياسيًا. وإذا كان ثمة إختلاف بين الزعماء الوطنيين والزعماء الدينيين،

فهو خلاف لم يتخذ مظهر النضال والكفاح.

وإنه من الزيف القول بأن العامل الإسلامي كان العامل الوحيد لقيام كل هذه الحركات، فواضح أن لكل منها أسبابًا وعوامل أخرى تختلف من الواحدة إلى الأخرى، ومع ذلك فقد كانت الصفة الإسلامية غالبة، حتى في الحالات التي يكون فيها القادة ممن تأثروا بالغرب، فتصبح هذه الحركات إسلامية بالنسبة للجماهير والأتباع.

على أن الحركات القومية التي قيض لها النجاح هي التي أتخذت لنفسها برنامجًا إيجابيًا، ومضت في ولاء له تحاول تحقيقه، ومن الأمثلة على ذلك نجاح الحكم في الجمهورية العربية المتحدة بقيادة «عبد الناصر» حيث فشل الوفد.

وكانت الجامعة الإسلامية شعورًا لدى المسلمين بضرورة تماسكهم، إذ أن وحدة المسلمين في العالم الإسلامي هي وحدة مشاعر، إلا أن المحاولات التي بذلت لتجعل منها وحدة سياسية باءت بالفشل بمجرد مواجهتها الواقع، وقد أكد جمال الدين الأفغاني هذه الوحدة، إلا أن أساليب السلطان عبد الحميد لم تفلح في تحقيقها، وظلت الجامعة الإسلامية إلى اليوم حلمًا جميلًا يعز تحقيقه، كانت مستقرة في الوعي الديني الإسلامي القديم وبقيت محتفظة بقوتها فترة إلى أن حطمها التاريخ عندما أختلف المسلمون بعد موت النبي، ودب الانشقاق في صفوفهم بموقعة الجمل سنة ٢٦ هـ. ومنذ ذلك الحين لم يندمل الجرح إلى اليوم، وإن بقي الخيال يجذب الأنظار إليه، وليس ثمة تعارض بين الجامعة الإسلامية وبين الروح القومية في

البلاد الإسلامية، وإنما التعارض قائم بينها وبين الحقيقة الواقعة.

وصفوة القول فيما تقدم أن الإسلام في العصر الحاضر قد أحتضن النزعات والحركات القومية التي رآها تتفق ونهجه في إستعادة أمجاده الماضية، ما دامت متمشية وفق التقاليد الإسلامية، هذا بإستثناء تركيا.

المعاذير

يلي ذلك أهمية، المعاذير، أو الدفاع عن العقيدة، عن رجاحة الإسلام، فكل الكتب والأحاديث التي تتصل بهذا الدين تتخذ موقف الدفاع وتهدف إلى حماية ذمار الإسلام أكثر مما ترمي إلى شرحه وفهمه وترمي إلى دعمه ومظاهرته أكثر مما ترمي إلى بيانه والكشف عنه.

وهذه الحقيقة، في تشعبها البعيد هي علة سوء التفاهم بين المسلمين والغربيين، والسبب في أن غير المسلمين يسيئون فهم الأفكار الإسلامية الحديثة، والواقع أن كلا من الجانبين لم يدرك الموقف إدراكًا تامًا، فالمسلمون يأخذون قضايا الدين بتسليم، ولا يتقبلون سواها، على حين نجد الغربيين يؤمنون بالتفسير العقلي، وهذه الطريقة التي يتبعها المسلمون في تقبل دينهم تفسد تقدير الغربيين للإسلام الحديث وتقف حائلًا أمام المسلم في صراعه ضد الصعوبات الدينية الحديثة التي يواجهها.

وتنطوي المعاذير في الإسلام على ثلاثة إتجاهات: دفاع ضد مهاجمي الإسلام، ودفاع ضد الكافرين به، ودفاع يتجه إلى مقاومة صبغ الحياة الإسلامية بالصبغة الغربية، وبالرغم من أن هذه الإتجاهات الثلاثة متداخلة بعضها في بعض، فإنه يمكن تمييز الفروق بينها. قام المدافعون عن الإسلام

بالرد على النقاد الغربيين وخاصة في الفترة السابقة على الحرب العالمية الأولى. فقد كانت ثمة هجمات يتلقاها الإسلام تارة بإسم المسيحية وتارة بإسم الباطنية وأخرى بإسم التحرر التقدمي إلى غير ذلك من أسماء وآراء، وكان ثمة إندفاع بين الشباب الإسلامي إلى الإنحراف عن الدين تحت ضغط المدنية الغربية الحديثة، وسلك بعض الشباب سبلًا تتنافى والدين وتقاليده، وأعتنق بعضهم بعضًا من هذه المبادئ، كما تطرف فريق منهم إلى حد إعتناق الشيوعية وقد أدى ذلك ببعض المسلمين الذائدين عن الإسلام إلى إعادة النظر فيما يتقدمون به من دفاع وما يقدمونه من أدلة، ومن أمثلة هؤلاء الأمير على الذي عرف بحسن بلائه في الدفاع عن الدين الإسلامي لدى المسلمين الذين طغت عليهم المدنية الغربية، ونشهد أخيرًا دفاعًا آخر مبنيًا على العقل لدرء الهجمات الموجهة إلى الدين الإسلامي الذي ضعف بعض الشيء في هذا الزمن، وأصبح يتعين دعم الدفاع عنه على أسس من العقل.

الديناميكية الإسلامية

والعنصر الثالث في الإسلام الحديث، والسابق الإشارة إليه هو الديناميكية: أي تقدير النشاط أو الفاعلية في ذاتها، هذا الذي قد يكون عنيفًا مثيرًا بالإنفعالات النفسية. وقد كانت لهذا العنف نتائج سلبية لم يستفد منها، بل إنها كانت باعثة على النفور، إذ كانت بين الدهماء هياجًا لا ضابط له ولا تعقل فيه، مما ترتب عليه في بعض الأحيان مذابح قاسية. وكان أصحاب هذه الحركات العنيفة يسيرون كالأعمى بلا بصيرة، ومثال هذه الحركات العنيفة ما قام به الإخوان المسلمون في مصر والبلاد

الإسلامية والجماعات الإسلامية فى الباكستان ولقد أصبحت هذه الحركات خطرًا يهدد أمن البلاد التي كانت مسرحًا لها مما حدا بالحكومات إلى قمعها والقضاء عليها. وهكذا نرى مسلم اليوم في حيرة من أمر نفسه، أنه يواجه مشكلات علمانية، يفصلها عن دينه فجوة، حتى بدا أنه لكي يعيش في هذا العالم يتحتم عليه أن يواجه هذه المشكلات في صراحة تامة، كما يتعين عليه أن يسد الفجوة بين عقيدته ودينه وبين العالم الذي عليه أن يعيش فيه.

الفصل الثالث

العرب: الأزمة الإسلامية

العرب قوم ذوو كبرياء وحساسية وما من سبيل لإدراك موقفهم اليوم إدراكًا كافيًا، ما لم نراع هذين العاملين ونوليهما ما يستحقان من إعتبار، علينا أن نقدر كذلك ماضي العرب الذي يفخرون به، ونقدر حاضرهم وما يثيره فيهم من حساسية.

وفضلًا عما تقدم، فالعرب مسلمون، يمتزج إسلامهم بنسيج كبريائهم وحساسيتهم، كما يتداخل مع عروبتهم ويمتزج بها مما يجعل لحياتهم اليوم سمعة خاصة. بل إن الاسلام هو الصفة الظاهرة للقومية العربية، وهكذا نرى أزمتهم التي يواجهونها تسير وعقيدتهم جنبًا إلى جنب.

إن العرب ليجمعون في تركيز شديد الأزمة الحديثة للعالم الإسلامي كله، ولكن على طريقتهم الخاصة. بل إنها عروبتهم التي تضفي على إسلامهم الحياة والصرامة.

وفخر العرب بعروبتهم عميق جدًا. ولهذا الفخر عناصر مختلفة يرجع بعضها إلى ما كانوا يتحلون به من فضائل في الفترة السابقة على الإسلام، كان من أبرزها المروءة، ويعتبر العربي الحق مثلًا يحتذى به في هذه الناحية، كما يرجعها البعض الآخر إلى لغتهم العربية، إذ هم فخورون بها وبآدابها

وتاريخها كل الفخر، لقد سادت هذه اللغة في العصر القديم، وكانت ثقافتهم في وقت ما هي الثقافة المرموقة في العالم هذا فضلًا عن أن المسلم العربي، كأي مسلم آخر فخور بدينه وعقيدته، فالإسلام هو الدين الوحيد في العالم الذى ملأ نفوس معتنقيه فخرًا وإعجابًا، وهم ينظرون إلى لغتهم بوصفها اللغة التي أختارها الله وسيلة لإظهار دينه، فكانت هي اللغة التي يجب أن يتعلمها كل من أراد أن يتخذ الإسلام دينًا له، ومن ناحية أخرى فالإسلام هو الذي خرج بالعرب من ديارهم إلى بلاد أخرى ما كانوا يعرفونها، ففتحوها وأنتجوا فيها وهكذا نجد أن الإسلام كان سبب عظمة العرب الدنيوية، كما كان العرب من الناحية الأخرى أصحاب فضل في نشر الإسلام في بقاع الأرض.

تعلق العرب بدينهم

والعربي ليس في حاجة لأن يكون متدينًا أو روحانيًا كما يستطيع أن يفخر بالتاريخ الإسلامي، والواقع أنه ليس في حاجة حتى لأن يكون مسلمًا، فالعرب المسيحيون يشاركون في هذا الفخار. ولكن من الناحية الأخرى ليس العرب المسلمون على يقين من أن غير المسلم يصح أن يكون عربيًا كاملًا أو أن غير العربي يصح أن يكون مسلمًا كاملًا، فعظمة الإسلام، بل والتاريخ الإسلامي ينتهيان عندهم بإنهيار العرب، سواء بسقوط بغداد في سنة ١٢٥٨ أو بفتح العثمانيين مصر في سنة ١٥١٧.

إذا رأينا ذلك وأدركنا مبلغ تعلق العرب بدينهم الذي كان أساس عظمتهم ورفعة شأنهم في العالم أمكننا أن نقدر عمق شعورهم ومدى

حساسيتهم إزاء كل هجوم على هذا الدين.

ومن ناحية أخرى، فقد رأى العرب العالم الحديث يتآمر على عروبتهم، مزعزعة الثقة في القومية العربية، وكان هجومه هجومًا على أهم معاقلهم، كان الهجوم لا هوادة فيه ولا رحمة، ومن أمثلته الصارخة إطلاق السفن البريطانية نيرانها على الإسكندرية سنة ١٨٨٢ بغية القضاء على حركة «عرابي باشا» عندما قام لإصلاح الحكم الداخلي في بلاده، كذلك أصلت الطائرات الفرنسية بقذائفها المدن السورية سنة ١٩٢٥ حين طالب السوريون بالحكم الذاتي، واقتحمت الدبابات البريطانية قصر عابدين وكسرت بابه كي تقيم حكومة موالية للحلفاء لذلك كان العرب باستمرار متوجسين من الغرب ويعيشون في ظل المدافع التي قد تنطلق في أية لحظة، وتهددهم في كل لحظة ويلازمهم الشعور بالخطر، يأتيهم من ناحية الغرب، ويعتقدون أن الغربيين سيهاجمونهم كلما سنحت فرصة الهجوم، وسيعتدون عليهم، وأن لديهم القوة التي تمكنهم من الهجوم والإعتداء وفضلًا عن ذلك فقد كان في يد الغرب سلاح آخر لفرض سيطرته على العرب، سلاح الضغط الاقتصادي الذي كثيرًا ما تعرض له الغرب بدرجات تتفاوت، فكان تارة ثقيلًا قاسيًا، وأخرى غاشمًا لا مبرر له وهو بعد ذلك سلاح خبيث يخضع العرب للكفار، وكثيرًا ما أحس العرب ألا مبرر لهذا الضغط وهذه الهجمات، وكانوا يرون العالم مبهمًا لا يدركونه إدراكًا تامًا، ولا يمكنهم أن يسيطروا عليه.

على أن الأمر لم يقف عند هذا الحد من الهجوم المسلح إلى الضغط الإقتصادي، إذ جاوز الغربيون هذا كله إلى توجيه النقد إلى العرب في

حياتهم الخاصة ونظمهم.. بل إلى وصفهم بالتأخر والتخلف. بل إنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك فحابوا اليهود على حساب العرب فيما يقدمون من مساعدات موحين إلى العرب أنهم ليسوا متخلفين فقط، وإنما لا أهمية لهم أيضًا.

الغرب يخلق إسرائيل

ومما يحز في نفوس العرب، توالي الحوادث والمحاولات من جانب الغرب، كي يدخل في عقولهم أن عظمتهم قد ولت إلى غير عودة وقد بلغ هذا الشعور مداه حين خلق الغربيون دولة إسرائيل. وقد دأب الغربيون طوال خمسة وسبعين عامًا على الإيحاء للعرب بأنهم مختلفون، وحثهم على ترك أسلوبهم في الحياة ونبذ الخرافات وتحرير أنفسهم ونسائهم ومجتمعاتهم، وصادفت هذه الدعوة هوى في نفوس البعض، ولقيت إعراضًا من الآخرين، وحتى الذين استجابوا لها وأسلموا قيادهم للغربيين، لم يجدوا لديهم الحماية في أي أزمة واجهتهم، بل أبصروا بوعود الغربيين، فإذا هي سراب خادع، مما زعزع الثقة في دعاة التحرر، وأفقدهم إحترامهم وإعتبارهم بين قومهم وذويهم، وقد قال لي أحد قادة الفكر في دمشق في سنة ١٩٤٨ إبان حرب فلسطين، على غير رغبة أسرتي هجرت تقاليدنا وبيئتنا واعتنقت الثقافة الغربية، أمضيت في باريس ست سنوات في العلم وأخذت عن الغربيتين طريقتهم في الحياة وتفكيرهم وقيمهم، وكان النقاد العرب يدعون أننا تخلينا عن القضية العربية، بل وخناها وجربنا على أن نظن فيهم عدم الفهم والإدراك، أما الآن فنعجب مما إذا كانوا هم على حق في تفكيرهم ونرانا قد لعبنا على الجواد الخاسر لقد أنحزنا إلى الغرب

ولكنه تخلى عنا.

وقد رأينا كيف قامت المظاهرات في شوارع القاهرة في مارس سنة ١٩٥٤، ضد الرجعية والفساد، والحكم البرلماني بوصفه المسئول عن الفساد الذي قامت الثورة المصرية لمحاربته.

وثمة اتهام آخر ضاعف مما يحس به العرب من مرارة وألم، كان ذلك في حرب فلسطين وكان الصليب الأحمر، رمز الإنسانية الغربية والخير المسيحي، ومع ذلك كان يحابي اليهود على حساب العرب، لا في ميدان القتال، وإنما في أروقة المستشفيات، ووجد العرب أنفسهم مبعدين، لا إعتبار لهم ولا أهمية، وللأسف كانت هذه الواقعة صحيحة، وكانت كافية لإبراز شعور الغربيين نحو العرب، وهذا مثل واحد من الكثير الذي حدث في قضية فلسطين، وكان كشفًا مزعجًا للعرب، إنهم غير مقبولين من الغرب ولا ينظر إليهم كأعضاء في المجتمع المتحضر وإنهم لا أصدقاء لهم.

العروبة والإسلام

والعربي مسلم ويجب أن تعرف هذه المعادلة بدقة، ومدى تأثيرها في تطوره، وعلى الرغم من أن العروبة والإسلام شيئان مختلفان فإن العربي يجنح إلى تحقيقهما، على الأقل، في شخصه. فهو الشيئان معًا في وقت واحد، وقد نما الشعور أخيرًا بين العرب بأن الهجوم عليهم من جانب الغرب مقصود به الهجوم على دينهم، وأن العالم أو في القليل الغربي يتعمد تمزيق الإسلام.

ومن الحق أن الإسلام يعتبر صعوبة من بين الصعاب التي يواجهها

العرب اليوم، وأحد العوامل التي شاركت في إيجاد الفجوة بينهم وبين الغرب، ولكن ذلك لا يذهب بنا إلى ما يعتقده العرب من أن الغرب يعمل على سحق الإسلام، بل على نقيض ذلك، فالمسلمون، والعرب خاصة، لا يدركون المجهودات الشاقة التي يبذلها الغرب في سبيل فهم الإسلام، وهم لا يدركون مدى الصعوبة في هذا. إذ الواقع أن الفروق بين الحضارات العظمى في العالم دقيقة وعميقة. وإن الفجوات القائمة بينها تدق على فهم الغربيين والمسلمين على السواء.

وهناك اتجاه جديد في العالم الحديث إلى ضرورة عبور هذه الفجوات. وإيجاد إتصال وتفاهم بين الحضارات المختلفة، ففي الماضي قامت الحضارات واستمرت دون فهم ما للحضارات المجاورة، فكانت الصلة التي تربط بين حضارتين متجاورتين قائمة على التجاهل أو القتال، وإن عمل اليوم غير المسبوق، أن نعرف كيف نعيش في العالم متعاونين. إنه يحتاج إلى جهد مبدع.. وإنه لا يمكن أن يتم بغير صعوبة ومشقة.

علاقة الغرب بالإسلام

وعلى الجانب الغربي – وخاصة أمريكا – على هذا الجانب بسياسييه وصحفييه والسائحين الوافدين منه وغيرهم أن يدركوا مدى أهمية وتشعب الفوارق وكيفية إقامة الصلات رغم هذه الفوارق. وعلى المسلمين أن يقدروا مدى الصعوبة التي يلقاها غير المسلم لفهم الثقافة الإسلامية والدين الذي يعتبر أساسًا لها، إن المسلم ليدهش لعدم فهم الغربيين لدينه، فالإسلام عنده واضح كل الوضوح، وعلى أسسه قامت ثقافته، وتستقيم

تعاليمه والمنطق، ولكن فاته أن الدين الواحد يختلف مفهوم إتجاهاته وقضاياه من فرد إلى آخر بين معتنقيه، كذلك نرى المسلمين لا يفهمون العقيدة المسيحية، بل يجهلونها، ويجهلون أنهم يجهلونها.

إذن، للعرب ما يبرر شعورهم ولكن ليس لهم ما يبرر تفسيرهم لما بينهم وبين الغرب من تباعد بأن الإسلام عامل هام في ذلك. فالغرب شأنه شأن المدنيات الأخرى ما زال عليه أن يقطع شوطًا بعيدًا في نشر عنصر المناسبة الجديد الذي قد يكون ضروريًا لبقاء أي جماعة في المستقبل، وقد جرى التاريخ على أن علاقة الغرب بالإسلام كانت تختلف منذ البداية عن علاقته بأى مدنية أخرى، فقد كان لها تخوم مشتركة بينهما دواما مما يؤيد أنهما كانا على إتصال دائم وكانا على خصومة ونزاع صريح في الغالب، أما الصين والهند فكانا بعيدين تسودهما الخرافة، ولم يعرفا بحق إلا في القرن الثامن عشر، ومن الناحية الثانية فقد عرفت أوروبا الإسلام منذ ثلاثة عشر قرنًا، وكانت نظرتها إليه في الكثير الغالب النظرة إلى عدو وتهديد.

وكان الهجوم مباشرًا سواء من الناحية العسكرية أو من الناحية المذهبية، وكان بالغ القوة، وإنه لأمر طبيعي أن يرى المسلمون الحق والخير بل ومن المحتم أن الإسلام يجب أن يمتد كما حدث وتختلف عن ذلك نظرة غير المسلمين الذين تم هذا التوسع على حسابهم، لقد كان على حساب الغرب إلى درجة كبيرة، فقد فقدت المسيحية فجأة أفضل ولايات الإمبراطورية الرومانية، وكانت معرضة لخطر فقد هذه الإمبراطورية كلها، وبالرغم من أن القسطنطينية لم تقع في أيدي العرب كما وقعت مصر وسوريا إلا أنها سقطت في الموجة الإسلامية التالية سنة **١٤٥٣**، وفي

صميم قلب أوروبا فرض الحصار على فينا في سنة ١٥٢٩ ثم في سنة ١٨٦٣.

وكان التحدي والإنتصارات تصل إلى نطاق القيم والأفكار، فالهجوم الإسلامي كان ينتظم النظر والعمل، وكان الإسلام يركز أفكاره على مركز العقيدة المسيحية التي شرعت أوروبا تقيم عليها مدنيتها، وكان التحدي الإسلامي يتميز بالقوة حتى أنه تسلل بنجاح إلى قرابة نصف العالم المسيحي، فكان القوة الإيجابية الوحيدة التي أكتسبت مرتدين عن المسيحية، يقدر عددهم بعشرات الملايين، كان القوة الوحيدة التي أعلنت أن المذهب المسيحي ليس زائفًا فقط، بل شنيعًا أيضًا.

ولسنا نذكر بهذا التاريخ الطويل لذلك النزاع بغية إعادة إشعاله. أو لتبرير التهاتر فعلى العكس من ذلك لمجرد تبيان أن توفيق أولئك الذين يرجون أو يعملون اليوم على التوفيق أو التفاهم لا يتوقع أن يتم لهم هذا التوفيق سريعًا أو في سهولة ويسر.

المسيحية والصهيونية

وليس من الصعوبة بمكان أن نفهم أنه في موقف كالأزمة الصهيونية كانت عواطف مسيحي الغرب في جانب اليهود الذين أتفقت ثقافتهم مع المدنية الغربية لمدة تزيد على الألف عام، أكثر مما كانت إلى جانب العرب.

وهكذا لعب الإسلام بوصفه دينًا ومدنية تاريخية دوره في نطاق التطور الخارجي، ونحاول هنا أن نفهم الأزمة التي وجد العالم العربي نفسه فيها، لعب دورًا آخر في نطاق التطور الداخلي وهو دور هام وثيق الصلة بأزمة

العرب الداخلية، فقد وجدوا الإسلام هدفًا لهجوم العالم الحديث ولم يكن الهجوم علانية فحسب، وإنما هو ماثل في أذهان الأفراد العرب، وهنا يشتد الكرب وقد يصبح خطيرًا أيضًا.

على أن هناك أسلوبًا معروفًا وإن لم يكن بسيطًا مؤداه أن الدين هدف للهجوم عليه من جانب «العصرية»، وقد عرف الغرب هذه الظاهرة وكان الكفاح في القرن التاسع عشر حادًا، وأصبحت الفكرة القائلة بأن العلوم الحديثة بما لازمها من تفكير وجرأة، وإن الحياة العصرية بسحرها جعلت من العقيدة الدينية شيئًا لا يمكن الدفاع عنه أو تأييده أو غير ضروري، ذائعة في العالم كله. إلا أن المراقبين الغربيين، وقد تعلموا هذا بالنسبة للمسيحية، تملكتهم الدهشة لما تبينوا من أن الدين لم يفقد سحره في المجتمع العربي أو بعبارة أخرى في العالم الإسلامي.

فالإسلام لم يتأثر بهذا الإتجاه إذ أنبرى المدافعون عن العقيدة يصدرون الكتب تلو الكتب، والنشرات تلو النشرات، يدافعون فيها عن العقيدة، وينعون على الشباب العربي إعتناقهم المذاهب العقلية الغربية، وغيرها من الآراء التي تنكر على العقيدة صحتها. وقد يبدو أن هذه الشكوى مبالغ فيها إلا أن مجرد وجود هذه الكتابات الدفاعية يقوم دليلًا على وجود المشكلة ذاتها وحدتها.

فالمشكلة قائمة وحادة، ليس بالنسبة للمجتمع فحسب، بل أيضًا بالنسبة للفرد، فإن كان كثيرون أنساقوا بعيدًا عن العقيدة فهناك آخرون يهيمون في وادي الحيرة والشك.. هوت أرواحهم في دوامة من التردد،

حيث تتقاذفها تيارات مختلفة من الإيمان والشك.

وعلى هذا النحو يكون الوضع في المجتمع العربي أوفر خطرًا وضررًا منه في المجتمع الغربي، سواء من ناحية الفرد أو من ناحية المجتمع، وذلك لسببين: الأول: إن الهجوم الدنيوي على الدين أجنبي عن العرب. وإنه لأيسر للفرد وأوفر صحة للمجتمع أن يجد تقليدًا موروثًا يناقش بقيم جديدة تطورت بين قومه، من أن تكون هذه القيم قد تسللت إليه على أيد مفروض أنها معادية فتقبل الإنسان، حتى من نفسه، لفكرة أنه كان حليف الخطأ دائمًا، أمر يحتاج إلى شجاعة إذ الشعور بالخطر وعدم الأمان يغدو عظيمًا إذا كان المعيار أجنبيًا، فالرجل الغربي الذي يجد أن دينه أصبح لا يمكن الدفاع عنه يعتنق بعض القيم الأخرى التي وجدت في مجتمعه، بينما العربى في مثل هذا الموقف تنصب مناهضته على هجر قيم مجتمعه، ويكون في تركه للإسلام كمن يخون مجتمعه.

ليس لدى العرب فلسفة دنيوية

وقد سبق القول أن الإسلام عقيدة لا تقوم على مجموع أو نمط من الأفكار وإنما على نمط من الحياة تتمثل في مجتمع له أساليبه الخاصة.. والخطر الذي يستهدف له لا يأتيه من الخارج فحسب، بل ومن الداخل ولا يتهدد وجوده وحده بل جوهره وماهيته.

ويقوم الفكر الإسلامي على أن المصير بيد الله، فالله وحده هو الذي يسيطر على الأحداث وقد ناقش المعتزلة وغيرهم هذه النقطة وذهب بعض المسلمين إلى أن المصير بيدهم بعد الله.

وكان للغربيين من الاكتشافات العلمية في القرن التاسع عشر موقف يختلف عن موقف المسلمين إزاءها فقد أثارت هذه الاكتشافات في الغرب الكثير من البحوث الدينية والتفسير لدرجة أثارت اهتمام الكنيسة وقلقها أما المسلمون فلم يواجهوا مثل هذه المشاكل الدينية، بل كانت المسألة عندهم سياسية لا دينية إذ تبينوا أن العلوم تمخضت عن قوى للغرب تبدو مختلفة، وبشكل ما، أقوى من تلك التي تلقاها مجتمعهم من الله، فقد ولد مع هذه العلوم مجتمع لا يقوى مجتمع الله الذي هو مجتمع المسلمين ، على الصمود، ولد مجتمعهم أكثر نجاحًا وربما أكثر جاذبية فالتأخر الإسلامي لا ينطوي على أن خطأ ما وقع في تطور المسلمين فحسب وإنما في قيادة العالم وإرادته.

وبالنسبة لكثيرين من العرب لم تعد المسألة أن حلم الإسلام لم يتحقق، فالأديان تقوى على البقاء دون تحقيق أحلامها فهذا شطر من عبقرية الأديان وقد بقي العالم الإسلامي والعرب طويلًا دون أن يتحقق حلم الإسلام، وقد تمتد الحياة بالإنسان ويظل معتقدًا أنه في يوم سيحقق الله المجتمع المثالي فيجعل من الحلم حقيقة، ولكن يصبح شديدًا على النفس أن يستيقظ الإنسان من نومه ليجد أن غيره حققوا أهدافهم في الوقت الذي أمضاه نائمًا.

ولم تعد المسألة بهذه البساطة مجرد حلم لم يتحقق وإنما خشية العالم العربي اليوم من أن يتبين أن الحلم كان باطلًا.

وإذن فالمأزق الإسلامي إزاء العصرية يحسه المثقفون بعمق، فقد مضى

أكثر من قرن من الزمان منذ بدت الحاجة إلى الدفاع عن العقيدة ضد الضغط الخارجي والتأخر الداخلي.. واليوم وبرغم التقدم في نواح كثيرة نرى الهجوم على الإسلام أكثر شدة، نرى هجومًا من الخارج، ومن الداخل ليس هجومًا من أعدائه الأجانب الخارجين بل كذلك هجومًا على الظاهرة التاريخية الخارجية للإسلام كحقيقة واقعة وعلى القوة الداخلية لحقه الجوهري.

الاستجابة للهجوم

إن هذا الإحساس بالهجوم يلقى كثيرًا من الضوء على التطور الإسلامي الأخير للعرب والعربي الحديث يقف موقف الدفاع عن نفسه، وعن مجتمعه ضد الاعتداء حتى أصبحت كل حركة ترمي إلى خلق ثقة بالعالم الخارجي تزيد من هذا العداء حتى لقد أصبحت كراهية الأجنبي صريحة في كثير من المدن الإسلامية الكبرى، وكان من نتيجة هذا الشعور أن أصبح المسلمون في هذه الأيام يضرعون إلى الله أن يتركوا وشأنهم ولكنهم تبينوا أنه لا يمكنهم ترك الدفاع ما دامت هناك هجمات إذ أصبح لهذه الهجمات رد فعل في عقولهم ومشاعرهم واتخذوا في دفاعهم طريقين: طريق الفكر أو المعاذير وطريق العمل.

المعاذير

المعاذير هي التعبير الفني المذهبي لما يتخلف عن الهجوم من رد فعل، ونظرًا لما أستهدف له الإسلام والعروبة من تهديد، فقد أتجهت المعاذير إلى إثبات سلامة كل منهما، إنها محاولة لتنسيق مجموعة من الأفكار تفيد

كحماية ووقاية من الخطر. وإنه ما من سبيل لتفهم الأدب إلا في ضوء الحاجة النفسية الملحة لمثل هذا النوع من التفكير الدفاعي، وإنه ليكتب ويقرأ في عالم يكتنفه الشك والعدوان إرضاء لمطلب بالغ العمق.

وطالما كان الأمر يتعلق بالعرب فإن الأدب يتجه وجهة التاريخ لإثبات تألق الماضي فإن كان يتعلق بالإسلام فإنه يجمع بين هذا المجد التاريخي وبين أمثلة لا حصر لها لتفوقه وسموه.

إن هذا النوع من الأدب الذي يستهدف الدفاع، ليبدو في الكثير الغالب عادلًا. فلا سبيل إلى إحتمال الإتهام والحقد. وإنه بإمعان النظر يبدو أن هذا الأدب الدفاعي وما ينطوي عليه من وضع ذهني ونفسي، إنما يثير في الواقع بعضًا من أعمق المسائل التي تتصل بمكان الإسلام في العالم الحديث. وهنا أيضًا نجد العرب يتحدثون عن مسلمي العالم، حديثًا على مستوى متزايد من الشدة، ينبعث من أعماق عواطفهم وتجربتهم.

ولقد تناولنا المعاذير في الفصل السابق بصفة عامة، على أنها جزء من محاولة واسعة للدفاع عن الإسلام. ولنتناول أولًا الشق الخاص بالتاريخ من هذه المعاذير، أنه يبدو لأول وهلة مفحمًا سليمًا، وقد سبق القول بأن العرب قوم ذوو كبرياء، والواقع أن في تاريخهم القديم ما يبرر هذه الكبرياء. والعالم العربي يستهدف اليوم بعث الشعور بالماضي بين العرب، وبث الشعور بالعزة والكرامة بينهم. إن الكتاب العرب يظهرون في كتاباتهم الدور الذي لعبه العرب في نشر الثقافة والعلوم منذ القدم، ويذهبون إلى أن حالة التأخر الحالية في البلاد العربية لا مبرر لها، بل يجب أن ينسحب

عليها هذا الماضي العظيم فيمحوها. على أن هذا النوع من الكتابة ينتهي إلى نتائج عكسية وضارة، ومن شأنه أن يزيد من خطورة المشاكل بدلًا من العمل على حلها. فضلًا عن أنه يجعل العرب ينفرون من أي نقد يوجه إليهم، حتى ولو أنار الطريق لهم وساعدهم على نقد أنفسهم بأنفسهم.

وليس ثمة من ينكر على العرب ما كان لهم من أثر في ميدان العلوم، فالدين الإسلامي لم يعارض العلم، بل شجع عليه وحث على نشره والاستزادة من بحوثه، وما زال ينتفع بعلم العرب إلى اليوم. ولكن العجيب حقًا أن أحدًا من كتاب العرب لم يتعرض بقلمه لتقصي أسباب إنحطاط العلوم بينهم في العصر الحاضر.

وكذلك سلك المؤرخون العرب نفس الطريق، فاستهدفوا الدفاع وحده دون تحري سبيل البحث الجدي الذي يهدف إلى كشف الحقائق كما هي وتحليلها وفهمها على وجهها الصحيح، لقد أستعاضوا بتمجيد الماضي عن شرحه وتحليله، وبإرضاء العاطفة عن الدقة العلمية، وبالتضخيم عن التحقيق.

إنه اتجاه من شأنه أن يترك المشاكل كما هي، دون أن يقدم لها حلًا، ولكن بعد أن يزيدها تعقيدًا. وكيما نوضح موقفنا علينا أن نحتمل مشقة شرح «المعاذير العصرية» وبيان الفرق الجوهري بينها وبين التقوى الدينية الإسلامية التقليدية الأكثر أصالة ومن حسن الحظ، أن صحيفة الأزهر – وهو المركز الإسلامي العظيم في القاهرة – تقدم هذا البيان. وهذه الصحيفة كان يرأس تحريرها في البداية (١٩٣٠ – ١٩٣٣)، أحد العلماء

الأزهريين القدامى، ثم تبعه أحد المجددين الأقوياء، وإن أصالة مقام الأول والغباء الملازم لعمل الثاني، ليقومان مثلًا قويًا للخسارة الكبيرة الناتجة من البعد عن الإسلام الصحيح.

إن اختيارنا لهذا العمل بالذات مقصود به الإيضاح، فللصحيفة قيمتها الخاصة، والمحرر الثاني هو مُحَمَّد فريد وجدي الذي كان هو الآخر كاتبًا له أهميته المستقلة وعلى أي حال، فإن ما يعنينا ليس مناقشة التفسيرات الشخصية، ولكن تقديرها بوصفها أمثلة للاتجاهات العامة. وغني عن البيان أن المحرر الأول ومدرسته يمثلان التقليد الإسلامي القديم في العالم العربي الحديث، وتعتبر آراء وجدي، لا إتجاهه، قديمة بعض الشيء، ونعتقد أن تفسيره للإسلام وإقترابه من العالم «الدنيا» معروف للعرب الحديثين وأصدقائهم كمثل للإتجاه إلى التجديد، أما المحور الأول فهو «الخضر حسين».

وبعد مقارنة بين بعض ما كتباه أنتهى إلى القول «إنه من المعروف جيدًا، في العالم الإسلامي وخارجه إن رجال الدين التقليديين لا قدرة لهم على الحديث إلى العالم أو عنه، حديثًا مفهومًا مقنعًا. ولكن الإخوان المسلمين أرتكبوا خطأين خطيرين: فقد كان أتباعهم يطيعونهم طاعة عمياء في حين كان أعداؤهم على حذر منهم، كان ينقصهم الإدراك الصحيح لمشاكل المجتمع الحديث، وكيفية التغلب عليها وحلها، وأرتكبوا خطأ آخر يتمثل في إتخاذهم العنف سبيلًا لإصلاح المجتمع، فراحوا يحرقون ويقتلون، حرقوا القاهرة واغتالوا رؤساء وزارات ونشروا الذعر بين المسيحيين وغيرهم من منافسيهم وصارت حركاتهم تمثل كراهية الطبقة المحرومة للطبقات

الأفضل منها حالًا، وهكذا فقدوا مثلهم التي كانوا يدعون إليها، ويعملون على تحقيقها، وكانت من بينهم فئة لم ترض هذه الإتجاهات، ولكنها عجزت عن الوقوف في سبيلها، فطغى عليهم جنون هدام مما أدى إلى فشل حركتهم والقضاء عليها.

ولنترك العرب الآن في أزماتهم أمام تلك الفجوة التي تفصلهم عن العالم الحديث، متجهين إلى قوم آخرين يدينون بالإسلام أيضًا.

الفصل الرابع

تركيا: إصلاح إسلامي

الأتراك مسلمون

إن هذه الحقيقة لم تنل حقها من الذيوع. على أن الأتراك ليسوا مجرد مسلمين، بل كانوا زعماء للمسلمين لعدة قرون، أضفوا على الإسلام قوة ومنعة وعظمة. واستمرارًا لهذه الحقيقة التاريخية، يقوم إحتمال في الوقت الحاضر، نتيجة للتطور الذي تستهدف له العقائد في عالم اليوم، لأن يعود لهم مكان الصدارة بين المسلمين مرة ثانية.

إن الذي يعنينا هو الحاضر، وموقف تركيا من التصدي للدين الإسلامي، فالأتراك لم يرتدوا عن دينهم ولم يهجروه، وإنما أخذوا يعيدون النظر فيه، معيدين بحثه من جديد.

وسواء في النظر أو العمل، نجد نظرة الأتراك إلى الإسلام تختلف عن نظرة الشعوب الإسلامية الأخرى، وهذا الإختلاف ذو أهمية قصوى ويحتاج إلى إيضاح. وكذلك يختلف الأتراك عن الشعوب المسلمة الأخرى في نشاطهم وتطورهم وما تركته ثورتهم في حياتهم الحديثة من أثر. إن إدراكهم للإسلام يمتزج بإدراكهم للتاريخ الإسلامي والدور الذي لعبوه فيه.

وإنه لمن الصعب المماراة في أن الأتراك هم الشعب المسلم الوحيد

الذي أدرك على وجه التحديد ما يحتاج إليه، وهم الشعب المسلم الوحيد أيضًا الذي استطاع أن يشكل أسسه الفكرية والإجتماعية بشكل يتناسب مع أوضاع المدنية الحديثة، وقد سبق أن قدمنا أن الإسلام يعني كثيرًا بالتاريخ، وإن الشق التركي من التاريخ الإسلامي هو الشق الوحيد في المرحلة المعاصرة، الذي يستطيع أصحابه أن يرقبوه دون أي إرتياب، وهو الشعب الوحيد كذلك بين الشعوب الإسلامية الذي يستطيع أن يطمئن إلى أن مشاركته في التاريخ الإسلامي الحديث كانت ذات أثر فعال.

إن الرباط الإسلامي بين الدين والتاريخ، والذي سبق أن أكدناه يجعل للنجاح التاريخي الذي أصابته الثورة التركية أهمية دينية قصوى. وإن القول بأن ما أصاب الأتراك من توفيق، كان مقابل ما منى به الإسلام الحقيقي لديهم من ضعف وتشويه، ليبدو عند المسلمين مزعزعًا، إن لم يكن غير محتمل.

وإذا كان الأمر على ما قدمنا من أن التجاذب بين العقيدة والتاريخ يقرب من صميم المشكلة الإسلامية الحديثة، لكان نجاح الأتراك في مسايرة التاريخ الحديث، حافزًا إلى دراسة يقظة لصلتهم بالعقيدة.

ومثل هذه الدراسة يتعين أن تكون من شقين، إذ كما سبق القول أن دور الإسلام في تاريخ تركيا اليوم، يتصل بدور تركيا في التاريخ الإسلامي في الأمس، وإذا قدرنا أولًا الإتجاه التركي الحديث إزاء الدين الإسلامي، كان ذلك معينًا على تفسيرهم الحالي للدين.

وهناك نظران، رغم عدم صوابهما يسيران جنبًا إلى جنب، أما الأول

فمؤداه أن الإسلام بلغ عصره الذهبي في بدايته ثم أنتهت عظمته قبل ظهور الأتراك، وأما الثاني فيذهب إلى أنه حين بدأ الإسلام ينهض من جديد ويجمع شتاته ويفيق من سباته أنحرف الأتراك متخلين عنه.

وفي مثل هذا الوضع تقترن فكرة ضيقة وقاصرة عن التاريخ الإسلامي، بتفسير جامد محدود عن العقيدة الإسلامية، فيضيع بذلك ما للتاريخ الإسلامي من ثروة وإستمرار، وما للعقيدة الإسلامية من وفرة وتنوع. إن المحاولة في كل من التاريخ والعقيدة، هي فرض فكرة صغيرة ساكنة **Static** على حقيقة كبرى في حركة **Dynamec** وأن أي فهم للإسلام يغدو جزئيًا فقط، إذ لم يكن من الشمول والمرونة بحيث يحيط بالوضع التركي، في الماضي والحاضر.

الأتراك والتاريخ الإسلامي:

وإذا عدنا إلى النظر فنلاحظ منذ البداية أن «هذا العصر الذهبي» كان مثار اختلاف بين المؤرخين المسلمين أنفسهم، فمنهم من قال إنه إنتهى بسقوط «بغداد» وقال أحمد أمين في كتابه «فجر الإسلام» إنه إنتهى بنهاية الإمبراطورية الأموية. في حين يقول آخر إنه ينتهي بنهاية الدولة العباسية، ويذهب آخرون إلى أنه إنقضى مع نهاية القرن الرابع الهجري.

وعلى نقيض ذلك، فليس تاريخ الأتراك الإسلامي بالبعيد ولا المكين ولكنهم مثل العرب المسلمين، فقد اهتم الأتراك العصريون بدورهم في التاريخ الإسلامي، وكان دورهم له أثره الظاهر. كان الأتراك عظماء في

إسلامهم، واستغلوا عظمتهم في دعم الإسلام، فنشروه في جهات كثيرة كالهند، ودافعوا عنه ضد المغول والصليبيين، وهم الذين تغلبوا على الدولة «البيزنطية» – ألد أعداء الإسلام – قضوا عليها.

وفضلاً عن ذلك فقد نشر الأتراك المستعمرات الإسلامية في جنوب أوروبا. أما من جهة الثقافة الإسلامية فقد منحوها العون الكثير بنشاطهم ومثابرتهم، كما زودوا الصوفية بعناصر مخلصة متحمسة ومنهم من حصل على أعلى الدرجات العلمية الإسلامية، لقد بنوا المساجد الفخمة وعمروها.

على أن الأتراك لما رأوا الجيوش الأوروبية تجتاح بلادهم وتمثلوا هزيمتهم وبلادهم المهددة بالسيطرة الأجنبية، بدأوا يتساءلون عن علة ضعفهم، وشرعوا يفكرون في علاج هذا الضعف، وأنهم يختلفون في ذلك عن الأمم الشرقية الأخرى التي كانت تئن تحت السيطرة الأجنبية الأوروبية، في أنهم كانوا يرون ذلك عيبًا في الغاصبين لا في أنفسهم. وصمم الأتراك على حفظ كيانهم، وأخذوا يبحثون حياتهم وأنفسهم، وينقصون نقاط الضعف فيهم.. وإنتهوا إلى أن واحدة منها تتمثل في طريقة معيشتهم كافة في نطاق بناء الإسلام فعقدوا النية على تغيير هذا الشكل وهذه الطريقة.

الإسلام والدنيوية التركية:

إن القول بأن الأتراك بإيثارهم الدنيوية قد تخلوا عن الإسلام لا يحظى بتأييد من الباحثين في الشرق أو الغرب، وإنما هو مجرد إحساس شائع بين الأوروبيين والمسلمين في الأقطار الأخرى، والمسألة في حقيقتها لا تعدو

الهيئة الحاكمة، لقد شرع «أتاتورك» ومن حذا حذوه من دعاة المدنية الحديثة في بناء بلادهم من جديد، وبدأوا يضفون عليها الطابع الغربي، لقد رأوا أنفسهم في حيرة، يتساءلون كيف يمكنهم الاحتفاظ بتقاليد الدين الإسلامي وإحيائها مع هذه الظروف الجديدة، ولكنهم لم يترددوا في إعتناق المدنية الحديثة كلها، فبدوا كما لو كانوا قد إبتعدوا عن حظيرة الدين في حركة تحررهم.

ومما يقوي هذا الإتهام الذي يستهدون له قضاؤهم على الخلافة في سنة ١٩٢٤ وإحلالهم القوانين الغربية محل الشريعة الإسلامية في سنة ١٩٢٦، وتعديلهم دستورهم في سنة ١٩٢٨ مغفلين منه الفقرة التي تنص على أن الإسلام دين الدولة، وأحلو الحروف اللاتينية محل الحروف العربية، فهل من أجل ذلك يصدق عليهم أنهم تركوا الإسلام..؟

وتختلف الإجابة على هذا السؤال، والواقع الهام أن الأتراك أنفسهم ينفون ذلك من أعماق قلوبهم، ويثير هذا الاتهام لدى الكثيرين منهم السخرية والإستهزاء، ولا يرون في ذلك أكثر من أنهم سمحوا لأنفسهم إزاء دينهم ببعض الحريات، دون أن يرتدوا عنه.

وتتحول المسألة الآن إلى تساؤل عما إذا كان تطورهم الديني منذ ثورتهم يتجه ضد الدين الإسلامي، أم ما زال داخل نطاقه؟ وهذا يذهب بنا إلى سؤال آخر هو «هل كان أفراد الطبقة الثائرة من الرجال والنساء الذين أجروا هذا التطور في تركيا من المسلمين أم كانوا من المارقين؟ والرد على ذلك هو أن جميع الأفراد الذين ساهموا في هذا التحول والتطور

مسلمون، وكل ما أتوه في الخمسة والعشرين عامًا الأخيرة في شكل دينهم في بلادهم، إنما هو تطور داخل نطاق الدين الإسلامي: مجرد طارئ في تاريخ الدين الإسلامي، وبعبارة أخرى هو تطور تركيا نفسها، وبذلك فلا يتبقى إلا تبين ما إذا كان ما قاموا به من تطور جديرًا بالتقدير والإعتبار.؟

لقد صرح كثير من الأتراك بأنهم مسلمون ولكن بشكل مستنير وإنهم لم يتخلصوا إلا من الأشياء التي تبعدهم عن دينهم، وما زالت فيهم روح الدين الحقة نامية قوية، لقد تخلصوا من ذلك الرباط الذي يربط بين الدين والحكومة، والذي سبق أن أدى بالسلطات الدينية إلى الانغماس في الرذيلة والتدخل في السياسة كما عاق تقدم أمتهم.

إن الإسلام عندهم دين بلا كهنة، ولكن الذي حدث في بلادهم يوم كان الحكم مرتبطًا بالدين أن ظهر بينهم من استغل الأفراد وأفسد الحكم بإسم الدين الذي أساءوا التعبير عنه، وهم يعتقدون أن الإسلام دين تقدمي، ولكن هؤلاء المستغلين المفسدين جعلوا منه عقبات في سبيل التقدم، كما جعلوه جامدًا حتى إنه لما جاءت حكومة تعمل على تقدم البلاد ودفعها إلى آفاق أوسع، وجدت أن هذا الجمود وتلك العقبات الدينية قد وقفت في طريقها فرأينا تركيا في سبيل رفعة شأنها وخلق مثل عليا جديدة لم تتردد في سحق تلك السلطات الدينية وألغت تعاليمها وحررت الإسلام وكشفت النقاب عن الدين الحق القويم.

ولا ريب في أن الأتراك لم يرتدوا عن الإسلام، ولكن العرب لا يدركون كنه الإسلام الحقيقي، فهناك ثلاثة أنواع من الدين الإسلامي – دين

القرآن، ودين العلماء، ودين الدهماء – ويتسم النوع الجديد منها بالخرافة والجمود. أما الثاني فمثقل بتراث قديم عتيق، وهو بعد ذلك غير عصري، ومادته صعبة تقضي على الإنسان ألا يتصرف في أي شيء إلا بحسب فتوى العلماء، وقد تخلصت تركيا من هذا النوع الثاني، ووجدت أن الوقت قد حان للقضاء عليه، وبذلك كان الأتراك قادة العالم الإسلامي، وكان الإسلام في نظرهم في حاجة إلى إصلاح. وفي هذا المضمار وإلى هذا الحد ما زالت تركيا في مقدمة العالم الإسلامي، وما زال العرب وغيرهم من الحمقى مقيدين في تفكيرهم.. بأن تركيا تركت الإسلام، وهذا غير صحيح، إن كل ما في الأمر أنها اتخذت إجراءات وخطوات كي تجعل الإسلام كما يجب أن يكون، وتجعل الفرد والأمور الخاصة به منوطة بضميره وعقيدته الخاصة، فالشعور الديني قوي في لوح الإنسان لدرجة أن الذين لا يمكن أن يمحى منها، وكل ما عملناه هو أننا حررنا تلك العقيدة.

ومما لا شك فيه إننا لم نرتد عن الإسلام، بل على نقيض ذلك، فإن في تركيا ما نعتقد أنه الإسلام الحق الذي أتى به «محمد»، ولكنا قد خلصنا من الوساطة في الدين، وسلطة الكهنة وتفكيرهم وطريقتهم التي تتنافي وتعاليم الإسلام.. حقًا إننا نريد أن نفهم الإسلام عن طريق ترجمة القرآن إلى التركية.

وتتهم تركيا الحديثة بتقليد أوروبا والتشبه بطرق في الحياة وأفكار وثقافات مختلفة. والواقع أن الاتراك لم يكونوا في هذا الميدان مجرد مقلدين بشكل سطحي، بل مساهمين في هذه المدنية الغربية الحديثة، وخاصة في إعادة تشكيل بيئتهم، فتراث الإنسان في تطور، والإنسان قادر على التأثير

في هذا التطور والسيطرة عليه، ولكن في حدود خاصة، إلا أن هذا التطور الإجتماعي في يد المجتمع نفسه، والأتراك الحديثون مثلهم كمثلهم الغربيين الحديثين قد تمكنوا بفضل جهدهم وذكائهم من الشعور بأنهم سادة مصيرهم ويقول بعض رجال الدين أن هذا القول غطرسة من الإنسان، وهذه الغطرسة هي أعظم آثام بني الإنسان، وقد ثار الاحتجاج على ما يدعيه الأتراك من جانب المسيحيين في الغرب وبعض المسلمين في الشرق. وقد علق على ذلك أحد القاهريين المسلمين بقوله: «إن الأتراك مهما شعروا في قرارة أنفسهم – قد حادوا عن الإسلام– وكان الدافع لهم على ذلك هو الإنتقام»، فجوهر الدين هو الخضوع لمشيئة الله، وتقبل تعاليمه، وأن يشعر الإنسان بضآلة نفسه أمام عظمة الله، وأن الأتراك مثلكم أيها الأوروبيون، قد تحدوا الله مدعين أن من حقهم أن يسيطروا على أنفسهم، ويشكلوا معيشتهم طبقًا لرغباتهم. وأعطوا أنفسهم الحق في الحكم على الصواب والخطأ، وهم الآن في أقصى درجات إلحادهم يضعون أيديهم على الدين نفسه، يحاولون تشكيل الإسلام على النحو الذي يريدونه، ويخضعون الدين لخدمة أغراض الإنسان.

وقد ألف المتحررون الغربيون مثل هذا النقد، فقد رموا بأنه كلما زاد طموح الإنسان، كلما إتسع ميدان خطيئته، وإن محاولة الإنسان تغيير هذا العالم وتوجيه تاريخه والتحكم في مستقبله، لهو أقصى مراتب الغرور البشري الموصل إلى الفساد.

وإذا اتفقنا والأتراك العصريين، فإنهم في حقيقتهم مسلمون، ويبدو لنا إنهم يتبنون تفسير ترجمة جديدة للإسلام، فلا غرور ولا غطرسة، بل

يحدوهم إلى ذلك الإخلاص للدين نفسه، وهذا الميل إلى الحرية أملته حوادث تاريخهم الحديث، وإمتزجت هذه الأحداث بشعورهم بالمسئولية بسبب دينهم الإسلامي، وهذا التطور الذي صنعوه لأنفسهم لم يأت وفق مشيئتهم، بل وفق ما إعتقدوا وما شعروا بأنه في صالحهم، وإنه يتمشى ومشيئة الله، ولم يفعلوا ذلك بحسب أهوائهم. بل بحسب ما يعتقدون أنه الدين الحق، وكانوا في كل أعمالهم يخضعون للتعاليم الدينية ويرعونها.

مقتضيات ومشاكل الحياة العصرية :

من الحقائق الحديثة في تركيا إنه في نهاية سنة ١٩٤٦ سمحت حكومة الجمهورية بالتربية الدينية، بعد أن كانت تحرم أي نقاش ديني. لقد عزمت على إدخال التعاليم الإسلامية في المدارس. وفي سنة ١٩٤٨ فتحت مدارس لتخريج أئمة وخطباء للمساجد تحت إشراف الحكومة، وفي السنة التالية فتحت كلية أصول الدين في جامعة أنقرة، وفي سنة ١٩٤٧ سمح للحجاج لأول مرة بعد عدة سنين بالخروج إلى مكة، وأدخلت البرامج الدينية في الإذاعة، وفي سنة ١٩٥٠ سمح بزيارة القبور والأضرحة.

ومن الناحية غير الرسمية كانت هناك حفلات عرس تجرى وفق الطقوس الدينية، والطقوس الحديثة، وقد زاد عدد المترددين على المساجد، ومن يصومون رمضان. ولهذا التطور أربعة أسباب أولها أن هناك ميلاً فلسفيًا، حتى في الثقافة الغربية نفسها بعد الحرب العالمية الثانية، يبعد عن الدنيوية ويقترب من الروحانية. وثانيها أن الحكومة التركية على يقين من أن نظامها الجديد قد قويت دعائمه ولا يخشى عليه من أي حركات رجعية.

وثالثها إن إزدياد الروح الديمقراطية السياسية أعطى الفلاحين، وهم أكثر ميلاً إلى التقاليد الإسلامية عن طبقة الحكام، شيئًا من السيطرة السياسية. ورابعها أن الخطر السوفيتي على تركيا أدى بزعمائها إلى تقوية الدين الإسلامي لمقاومة الشيوعية.

نتائج حركة التحرر التركية:

على أن حركة التحرر التركية ، أولاهما: موقف تركيا الإسلامي هذه قد أدت إلى نقطتين هامتين: حيال الشعوب الإسلامية الأخرى. وثانيهما: موقف تركيا الإسلامي آزاء الشريعة الإسلامية، فمن الوجهة الإسلامية أضحى الأتراك في عزلة وعدم تطبيق للشرائع الإسلامية، وقد أعرضوا عن فكرة إيجاد رابطة إجتماعية إسلامية (خارجية). وهاتان النقطتان جديرتان بالاعتبار، فقد قال الأتراك أنهم لا يودون أن يتحملوا تبعات لا لزوم لها وتخص أناسًا آخرين، وإن عليهم أن يتركوا كل هذا ليقفوا في مواجهة «روسيا»، إنهم في حاجة إلى أصدقاء أقوياء وهم لا يتورطون مع العرب في الأمور الدينية، ولا يلقون بالاً إلى الأندونيسيين والباكستانيين لبعدهم عنهم ورابطتهم مع «إيران» رابطة ثقافية لا سياسية وشاعرية لا دينية.

أما غير هؤلاء من المسلمين، أي العرب، فإن لم يكونوا محتقرين في نظر الأتراك أو لا يسترعون إنتباههم، غرباء عنهم. ويقول أحد الأتراك «إن لنا مع العرب تجارب كافية وحقًا لقد صوتنا في صالحهم ضد الصهيونية، ولكننا لا نفكر مطلقًا في إرسال جيوش تساعدهم، أما ما يتصل بأهدافنا الحالية، فهناك فجوة حفرها الأتراك الحديثون بينهم وبين

العرب، وهذه الفجوة هي فجوة الدين»، أما عن الشريعة الإسلامية فقد إبتعد الأتراك عنها رغبة في فصل الحكومة عن السلطة الدينية، وقد أعتاد المجتمع التركي هذه الحالة، إذ حلت محلها قوانين وضعية، تقرب من القانون السويسري، وقد أحل أعضاء الجمعية الوطنية العليا هذا القانون الأجنبي محل الشريعة، لأنهم رأوا أنه أصلح لهم، ويفضل الأتراك، مع إحتفاظهم بثقافتهم التركية، ودينهم الإسلامي، أن يكونوا أعضاء في المدنية والعالم الغربيين، على أن يكونوا جزءًا من الكتلة الإسلامية..

وقد قال أحد رجال التربية الرسميين في تركيا: «إن الإسلام بين العرب وفي الهند مناقض للإسلام عندنا في تركيا، لأنه لم يحدث عندهم أي إنقلاب إجتماعي، ولم يراع «أمان الله» الأسس الإجتماعية في الإصلاح مما أدى إلى فشله، أما في «إيران»، فلم يتقدم النظام الإجتماعي تقدمًا يسمح بأي تغيير، فمسألة الحجاب مثلاً، لقد بدأ يظهر من جديد في طهران، أما عندنا فمن المستحيل أن يعود، أن كل شيء لدينا يعتمد على الحياة الإقتصادية والمرأة التركية الآن تعمل في المصارف والمدارس والجامعات وساحات القضاء والصيدليات، وعندنا في أنقرة وحدها عشرون محامية، وهذا مثال لما في المديريات الأخرى. ولقد سارت هذه الحركة التقدمية في مراحل كثيرة حتى ليتعذر عليها النكوص. لقد تقدمت الديمقراطية وسيتبع ذلك تطورات أخرى، والدين في تطور كذلك ونأمل أن يزيد في تطوره ولسنا في حاجة إلى مصلح، إذ حياة المجتمع عندنا تحرص على إصلاح نفسها».

فالأتراك العصريون غير سطحيين في تحويل بلادهم إلى بلاد غربية وهم في ذلك على النقيض من المسلمين في القاهرة، فبينما نرى المسلمين ينادون بسقوط الكتب الغربية، نراهم يرغبون رغبة ملحة ويميلون ميلاً قويًا إلى البريق الغربي، بينما الأتراك يواجهون مشكلة دينية عويصة، وهي كيف يربطون تراثهم الديني بحياتهم اليومية ومجتمعهم.. ذلك المجتمع الذي يناسب المجتمع الحديث، ولذلك يدرسون كيف واجه المسيحيون هذه المشكلة، إنهم لا يلجأون إلى المسيحية أو المسيحيين في أمر دينهم، وإنما يلجأون إليهم لمعرفة كيف أصبحوا عصريين بعد أن كانوا يعيشون في القرون الوسطى المظلمة وتبدو لهم الآن مشكلة هي «كيف يمكن أن يشكل الإسلام نفسه حتى يتفق مع المدنية الغربية؟» .

وثمة مشكلة أخرى وهي: «هل يمكن للمدنية الغربية أن تتطور بشكل يسمح لها بأن تتضمن تعاليم الإسلام؟» وبذلك نعود إلى البداية من حيث أن الأتراك مسلمون، وإنهم في إسلامهم مخلصون وجادون، بل مبدعون، حتى إنهم يفهمون ويتقبلون ويستخدمون وجهات نظر دينية جديدة، ولكن هل يمكن أن يتجهوا وجهة جديدة ؟ وهل لهم القدرة على ذلك؟ .. هذا هو مفترق الطرق.

الفصل الخامس

باكستان دولة إسلامية

إنبرى الباكستانيون في إلحاح ووعي، من بين المجتمعات الإسلامية في العالم، للعمل على تقويم التاريخ الإسلامي في العصر الحاضر. وإن هذا ليضفي على قضيتهم ما تستحق من أهمية أكثر من أي نجاح قد يصادفونه في تحقيق فكرتهم، فإنهم جماعة صحت نية أفرادها على أن يعيشوا معًا بوصفهم مسلمين، لقد جاهدوا حتى حصلوا على استقلالهم السياسي، فإكتسبت أمتهم وضعها الرسمي كدولة وألقيت على عاتقهم تشكيل حياة مجتمعهم بما يضمن له البقاء في العالم الحديث، وأنا لنرى هنا كيف يقوم مجتمع ديني في أيامنا هذه وكيف يطبق الإسلام كمثل إجتماعي أعلى، وإنها لفرصة مواتية لنشهد ما يعنيه الإسلام في العمل إنه التاريخ الإسلامي في عنفوان حركته.

في أقل من عشر سنوات، مرت باكستان بعدة أطوار بالنسبة للمكان الذي يحتله الإسلام من حياة الأمة، وليس من بين هذه الأطوار ما يعتبر حاسمًا أو في القليل واضحًا. لقد كثر الكلام حول الرابطة الوثقى بين الدين والحياة الإجتماعية، وتحمس كثيرون للقول بأن باكستان إستهدفت تحقيق مجتمع إسلامي حقيقي، وعندهم أنها ما وجدت لتطبق الدين على الحياة الحديثة.

لقد زالت الأوهام أخيرًا، وسرعان ما تكشفت محاولة الباكستانيين

لتطبيق الإسلام على شئون أمتهم عن صعوبات أكثر مما توقعوا، وبدت التطبيقات التي تولاها المتحمسون منهم سقيمة شوهاء، وتوقفت فترة بسبب حوادث الشغب التي وقعت في لاهور سنة ١٩٥٣، والتي إقترنت بإسم الدين، بضروب من الوحشية والفزع. ولم يقم حزب الجامعة الإسلامية في شرق باكستان بأي عمل هام، فلم ينجح أحد من أعضائه في الإنتخابات، وأحس كثيرون بأن مفهوم عبارة «دولة إسلامية» لم يؤد إلى شيء، فتحولوا بأفكارهم إلى أشياء أخرى.

وفي رأينا أن أحداث السنوات الأخيرة جعلت المسألة أكثر لزومًا.. ففشل دولة إسلامية قد يكون أيسر من نجاحها ولكنه ليس أقل أهمية، وقد لا تقوى أمة على التخلص سريعًا من الدين ولكنها لا قبل لها على الإطلاق على الإفلات من التاريخ، ومن تطور العالم. وما أن ينال شعب حريته إلا ويكون مسئولاً مسئولية كاملة حتى إزاء مسائل بالغة الجسامة، كتلك التي تصل تاريخه بعقيدته ولا يتوقف مستقبل الأمة فحسب بل مستقبل الإسلام أيضًا، على مدى ما يصيبه هذا الشعب المسلم من توفيق، وعلى أسلوب أفراده في تحقيق ما هدفوا إليه من الحياة معًا بوصفهم مسلمين، فبقدر ما للتاريخ الإسلامي من أهمية تكون أهمية هذا الشق، الذي يصنعه الباكستانيون منه اليوم، دنيويًا ودينيًا.

وبمعاودتهم التفكير، قد يبدو لهم أن ما أخذوه على عاتقهم من إقامة مجتمع إسلامي أكثر مشقة مما توهموا، وفي نفس الوقت لا سبيل إلى نكوصهم على الأعقاب أن الأمل بعيد المنال، والمجهود الذي بذل واضح جلي والمسئولية يتعذر التخلي عنها، فقد قدر لتاريخهم، عن قصد أو عن

غير قصد، أن يكون تاريخًا إسلاميًا والعدول عن تكوين دولة إسلامية بعد هذه المرحلة لن يكون مجرد نبذ فكرة، وإنما تكون دلالته أعمق من هذا بكثير، وسيؤول على أنه إقرار صريح من مجتمع مسلم بأن المجتمع الإسلامي الأمثل لا يناسب الحياة العصرية أو على أنهم في القليل كشعب لا قدرة لهم على إدراكه أو تحقيقه مما يعني وجود عيب في عقيدتهم.

ولكي يتجنبوا ذلك عمدوا إلى إعادة النظر في أمور دنياهم محاولين فهمها على نحو آخر، فليس ثمة مجتمع يقدر له البقاء دون أن تكون له مثل عليا أو عقيدة يدين بها، وإذا ما حادت باكستان عن الإسلام كان عليها أن تعتنق مذهبًا أخر، وقد ينتهي الأمر إلى عدم إقتناعها بشيء ما، ثم إلى التفكك والفوضى.

إن القول بأن باكستان في مقدورها أن تضع برنامجًا عمليًا إنشائيًا على أسس من الإسلام، لعلى خطورة وأكثر عمقًا مما يدرك غالبية رجال الدين. وبالمثل، فالقول بأنها تستطيع وضع برنامج عملي إنشائي غير مؤسس على الإسلام لعلى خطورة أكثر عمقًا مما يدرك غالبية أنصار الدنيوية. فالدنيوية الحرة في ذاتها عقيدة وإقتناع إيجابي، لها أسسها الخاصة الخلقية والفكرية ولها ضحاياها وأبطالها ومثلها العليا، ولها أخيرًا تاريخها ونظمها. ويتوقع البعض بأن تأخذ الدنيوية في الظهور تلقائيًا بمجرد أن يحاط بالعقيدة الدينية وبمجرد أن تهجر. وهذا قول جميل. إلا أن تاريخ باكستان اليوم، يوضح مدى ما في هذا الإدعاء من زيف. فقد تختار باكستان لنفسها مستقبلاً يقوم على الدنيوية الحرة، ولكنها إن فعلت فإن عملها هذا سيكون عظيمًا وفي حاجة إلى مستوى عال من الجهد المبدع.

والخلاصة، أنه في حالة باكستان، يجب أن نتناول فكرة «الدول الإسلامية» في حرص شديد، سواء فيما يتصل بأمة تهدف إلى أن تكون «إسلامية» أو فيما يتصل بتقدير الصعوبات الدينية التي تلاقيها فيما لو آثرت العدول إلى مثل عليا أخرى، أو فيما يتصل بإدراك ما يعنيه عملاً الفشل في أن تكون تلك الأمة، «دولة إسلامية».

وقد تنجح باكستان في أن تصبح دولة إسلامية، وقد تحيد عن الإسلام إلى اعتناق مثل أعلى جديد، وقد تفشل في ذلك، وكلا الأمرين صعب، والإختيار بينهما شاق عسير.

ونود أن نوضح إبتداء أن ثمة رأيا مؤداه أن باكستان دولة إسلامية فعلاً، وبجانبه رأي آخر يذهب إلى أنها لم تصبح بعد دولة إسلامية، وإنما قد تكون، ويجب أن تكون كذلك. وإذا تركنا المسائل المتصلة بشكلها أو مثلها العليا، فإن باكستان منذ بدايتها دولة إسلامية، وكونها كذلك يعتبر أحد التطورات الخطيرة في التاريخ الإسلامي المعاصر، فمجرد وجود باكستان يعتبر واقعة دينية أساسية في الإسلام الهندي.

وإنه لمن اليسير فهم هذه الأهمية الدينية لو صح ما قدمنا من أن الإسلام دين مظهره الرئيسي في العالم هو صلاحيته كنظام إجتماعي ، وقد بقي الإسلام عدة قرون دون أن يكون له مثل هذا المظهر الخارجي ولكنه بقي كحلم يراود المسلمين.

وإن هذا المظهر سرعان ما يظهر بمجرد أن تتاح له الفرصة المناسبة كما حدث، وفي حالة الهند، رأينا أن حركة ولي الله ساعدت على بعثه،

وكذلك كانت قوة الوهابيين وما تخلف عنها من حركات في بداية القرن التاسع عشر، وإلى حد ما ثورة سنة ١٨٥٧، وحركة الخلافة في مستهل القرن التاسع عشر كانت كلها بعض مظاهر هذه الديناميكية.

ومما يشبه ذلك أن الإستجابة كانت عظيمة، في سنة ١٩٤٠ عندما أيد فكرة باكستان حزب سياسي يمثل الطبقة المتوسطة هو «الحزب الهندي الإسلامي» وإن كان قد فعل ذلك خدمة لبعض أغراضه. لقد كانت زعامة المجتمع لعشرات السنين في يد فئة ليست لديها إتجاهات إسلامية تخليدية وإنما كانت متأثرة بروح الغرب، ومن ثم فقد ظل اعتناق هذه الفكرة مقصورًا على الطبقات الدنيا، وعلى أولئك الذين لم يتأثروا بالروح الغربية، أما الطبقة المتوسطة العصرية فكانت إلى حد ما قد بعدت عن التقاليد الإسلامية. أو لعلها كانت تحملها في أطوائها أحلامًا غير واضحة المعالم، أو مجرد شعور لا قدرة لها على إبرازه في شكل محدد، كان أكثر إهتمامًا ورعاية لأحلامها الخاصة بمصالحها المباشرة وأطماعها، وفي القليل أضافت إلى مثلها الموروثة أخرى جديدة عصرية مكتسبة، ولم ايكن أفراد هذه الطبقة في وضع يسمح لهم بتزعم الإتجاهات الدينية الشعبية، وعلى الرغم من كل ذلك فقد زادت الحماسة وإنتشرت في قوة عندما هدفت زعامتهم إلى وضع برنامج رأي بقية المجتمع أنه كفيل بتحقيق ذلك الحلم الذي طال عليه الأمد، وإن ما حظيت به الفكرة من معاونة جارفة إتفق عليها الجميع، ومن سرعة في جعلها حقيقة واقعة، أدهش الجميع، حتى الزعماء السياسيين أنفسهم.

ولا ننتهي من ذلك إلى أن هذا العامل كان العامل الوحيد فيما تم من تقسيم الهند، فقوة الإندفاع الملازمة للإسلام نحو إنشاء مجتمع دينى

سياسي، لم تكن بحال الوحيدة الفعالة في أحداث سنة ١٩٤٠، وإنما شاركت في الحركة الإنفصالية عدة عوامل أخرى سياسية وإقتصادية وإجتماعية ونفسية، كانت على درجة كبيرة من الأهمية ومثل هذه العوامل ذات أثر واضح في تاريخ البشرية كلها بما فيه التاريخ الإسلامي.

ولولا الديناميكية التي إقترنت بالظروف النوعية للحكم البريطاني في مدته الأخيرة، ما قدر للحركة الهادفة إلى إنشاء باكستان أن تتطور كما تطورت، وسنرى فيما بعد أن هذا الشكل الخاص من التطور أنه أيضًا في التاريخ اللاحق في نواحيه الإسلامية. وإنه لمن ألحق أيضًا أن ظهور باكستان ما كان ليقع إلا بفضل ما لدى المسلمين من إتجاه ديني متحرك نحو هذا العالم.

وإذا كانت الصفات الموضوعية لهذه الفترة تعني أن باكستان وقد اتخذت لنفسها هذا الشكل المعين، أصبحت دولة ذات شكل خاص فإن الصفة الخاصة لعقيدة المسلمين المستقرة في نفوسهم تعني من الناحية الأخرى إنه مهما كان الشكل الذي اتخذته هذه الدولة فهي في صميمها دولة إسلامية.

إن هذه الطبيعة الإسلامية للدولة – مستقلة تمامًا عن شكلها – هي التي تفسر ما إنبعث من ولاء وفرحة بمولد باكستان، فقد قوبل مولدها في سنة ١٩٤٧ بترحاب عميق من مواطنيها المسلمين، برغم الأحداث الدامية والفزع الذي ساد شهورها الأولى، والواقع أنه لولا مبادئ الإسلام الدينية والخلقية، ولو قدرتها الكاملة على العمل والصبر، لما أمكنها أن

تتغلب على ما إستشرى فيها في الأشهر الأولى من سوء نظام وفوضى، فبفضل الإسلام وجدت وبفضل الإسلام أمكنها أن تصبح أمة توجه نشاطها وطاقتها إلى البناء.

ولقد استرعي إنتباه الأجانب هذا الإلحاح الشديد، في إقامة هذه الدولة الإسلامية الجديدة. لقد كانوا في حيرة من هذه الحماسة من أجل إقامة دولة إسلامية، تبدو مقترنة بغموض شديد يكتنف طبيعتها، أو على الأقل بعدم قدرة أبنائها على إعلان ما يدور في خلدهم، وقد وجدت باكستان فعلاً.. وأصبح لها هذا الدافع الديني الهام.

والباكستانيون متحمسون لدولتهم الإسلامية، حتى كثر التساؤل، أي نوع من الدول هذه الدولة؟ وفي كثير من الأحيان لم تكن ثمة إجابة. وفي أحيان أخرى تسمع إجابات لا تخرج في مجموعها عن عرض أمثلة من التاريخ الإسلامي في أيامه الأولى تنحو نحو المثل العليا، أو أوصاف لنظم لا تختلف في قليل أو كثير عن النظم المعروفة والمطبقة فعلاً في الغرب الحديث، في حين أن التساؤل مقصود به تحري الخصائص التي تميز دولة إسلامية عن غيرها من أنواع الدول الأخرى.

إن التساؤل على قدر كبير من الأهمية، إلا أنه يهمل شيئًا أساسيًا يعتمل في عقل المسلم وقلبه، فلأول وهلة ليست الدولة الإسلامية نمط من الدول بقدر ما هي نمط من الإسلام، وهي لا تتميز كثيرًا عن غيرها من أنواع الدول الديموقراطية أو الفاشية أو غيرها. وإنما تتميز عن غيرها من مظاهر الإسلام كدين. فكما نجد فنا إسلاميًا وفقهًا إسلاميًا، وباطنية

إسلامية. وقبل ١٤/ ٨/ ١٩٤٧ كان لمسلمي الهند فنهم الخاص وفقههم وباطنيتهم.. ولكن لم تكن لهم دولة، وعندما إقترح عليهم «جناح» العمل على أن تكون لهم دولة إستجابوا لهذه الدعوة في حماسة عارمة. ولما حققوا الفكرة تملكهم الزهو، الزهو الديني والفردي، وإعتبر ذلك نصرًا لا للمسلمين فحسب بل وللإسلام أيضًا.

والإسلام كقوة حية في تاريخ العالم، اعتنقه ونفذه المسلمون، وصار فنهم فنًا إسلاميًا وفقههم فقهًا إسلاميًا، وإلى حد ما.. كانت ندباتهم وآلامهم وضعفهم نكبة للإسلام. والفن والفقه وغيرهما من مظاهر الدين، إلى حد ما، باقية غير زائلة، وكذلك المساجد والصور والكتب يمكن حفظها مدة طويلة بعد الوقت الذي صنعت فيه، أما الدول فتقوم وتسقط وتزول غير تاركة وراءها إلا الذكريات، وكما سبق أن قدمنا، لقد فقد الإسلام قوته السياسية في القرنين الثامن والتاسع عشر بعد إزدهار قوته السياسية في القرنين الثامن والتاسع عشر بعد إزدهار، ولم تقم للإسلام دولة في معظم بقاع العالم، ولكن مسلمي الهند، بفضل كفاحهم عن طريق العصبة الإسلامية أقاموا هذه الدولة.

الدولة والإسلام

ومن ناحية البحث الخالص، لم يكن الذي ينشد الدولة مجتمعًا إقليميًا أو إقتصاديًا أو لغويًا أو حتى قوميًا، وإنما كان ذلك المجتمع مجتمعًا دينيًا. ولم يكن الطريق إلى الدولة الإسلامية في الهند في أصله تدرجًا لدولة تنشد الصفة الإسلامية، وإنما تدرجًا للإسلام نفسه وهو ينشد دولة.

ولسنا نقصد، ولا نحسب أن الباكستانيين قصدوا، أن كل دولة مستقلة تضم مسلمين تعتبر إسلامية تلقائية، فليس الواقع على هذا النحو، ولم يتحدث المصريون والأتراك وغيرهم من المسلمين عن مجموعهم السياسي ولم يشعروا نحوه كما فعل الباكستانيون، وقد تداول الإندونيسيون فيما إذا كانوا يسمون دولتهم «إسلامية» وانتهوا إلى عكس ذلك. وما من شك في أن الباكستانيين تملكهم شعور قوي بأن أمتهم أمه إسلامية، فريدة في نوعها في العالم الحديث. وكان مبعث حماستهم، أنهم أضفوا على الإسلام مظهرًا لم توفق إليه أي دولة أخرى، فقد أضفوا عليه كيانًا سياسيًا لم يتمتع به لقرون عدة.

ومثار جدلهم في هذا هو إننا نجد أفرادًا ينتمون سياسيًا اليوم إلى دول أخرى كتركيا وأندونيسيا، ويعتنقون الإسلام بإخلاص، مع أن هذه الدول ليست متمشية وفق المبادىء الإسلامية، فتأثرت حياتهم بالروح الغربية، وهي روح غربية عن الإسلام. أما بالنسبة لباكستان، فالأمر يختلف، إذ يتوقف كيانها على الإسلام، فالإسلام هو سبب وجودها، والغرض من وجودها هو تمكين المسلمين فيها من الإفادة من عقيدتهم في دنيا السياسية.

باكستان. ساحة للديمقراطية الإسلامية والعدالة

وفي هذا الشأن ينص القرار الصادر من الجمعية التأسيسية في كراتشي بتاريخ ١٢ مارس ١٩٤٩ على أن الدولة وهي «باكستان» بمثابة الساحة للديمقراطية الإسلامية والعدالة.. إلخ.. وفيها سيتمكن المسلمون من تنظيم حياتهم في «النطاق الفردي والجماعي، وفق تعاليم وأوامر الإسلام كما

وردت في القرآن الشريف والسنة، كما جاء دستور باكستان الصادر في سنة ١٩٥٦ متضمنًا هذه الروح نفسها.

على أن باكستان لم تصبح دولة إسلامية لأنها ذات شكل مثالي بل لأنها ذات ديناميكية مثالية، وإنا لنفرق هنا بين الواقع والمثالي، بين ما هو كائن فعلاً وبين ما ينبغي أن يكون، ولابد أن يفرق الإنسان بين الأرض والسماوات، بين التاريخ البشري وبين العقيدة في سموها على أننا يجب أن نلاحظ أن هذه جميعًا متصل بعضها ببعض في قلب الإنسان، الذي هو مواطن في كل من العالمين، والذي تتكون حياته وتاريخه من الكفاح المستمر ليصلها بعضها ببعض.

فعمل الفنان يعتبر دينيًا، لا لأنه حقق هدفًا دينيًا، وإنما لمجرد أنه قصد إلى هذا الهدف، إنه الحلم يدور في رأس الفنان، أنه الدافع والطموح ينبعثان من عقيدته، وإنه لعمل مبدع أن نغلف هذا بالواقع وبالمثل، بالنسبة للفقه الديني، فليست مدارس الفقه، في التاريخ الإسلامي سواء في تقديمها صورة ذهنية كاملة للعقيدة، والواقع أن إحداها لم تقدم هذه الصورة، وما من شك في إستحالة مثل هذا الكمال أن يعبر عن دين بكلمات تعبيرًا كاملاً ومع ذلك فكل محاولة لتوضيح الدين نظريًا هي في حقيقتها متصلة بالفقه الإسلامي، فكل مجموع من الأفكار يعتبر فقهًا إسلاميًا واقعيًا، بقدر ما بذل صاحبه من جهد ليجعل منه فقهًا إسلامياً مثاليًا، ويصدق هذا القول على كل عقيدة.

لقد كان إعلان باكستان جمهورية إسلامية إعرابًا عن أمل بعيد. وكان

إنشاء دولة إسلامية بداية، وليس نهاية لمغامرة. فقد تلاشت الحماسة التي صاحبت الإنتصار الذي تمخض عن إنشاء باكستان، تلاشت تلك الحماسة تدريجيًا في اعتراف القائمين به بأن معنى التجربة ينضوي الآن في سؤال جديد دائم الإلحاح على أذهانهم، ذلك السؤال هو: كيف يكون مال تلك التجربة، لم يكن إنشاء دولة إسلامية كافيًا، بل كان واجبًا توفير الضمان الكفيل بتطورها، لقد قامت تلك الدولة على الدين، ولكن، حتى الدين لا يمكن أن يعقد إتفاقًا ساكنًا مع التاريخ بعيدًا عن حركته وتطوره. ولم يكن إنشاء دولة إسلامية مجرد شكل من الأشكال ولكنه كان إجراء تنفيذيًا يحتاج إلى موالاة دائمة.

دولة اسلامية مثالية

وإذن فلابد لنا من أن نلتفت التفاتا خاصًا لما قام به المسلمون في السنوات الأولى من إنشاء دولتهم لجعلها دولة متطورة.

إن النقطة الأولى واضحة، وهي أن تاريخ تلك الفترة كان معقدًا فقد كان على غلاة المتدينين من منشئي باكستان أن يجابهوا وجوها عدة لمشكلة إنشائها، وكما رأينا سابقًا، كان من رأى الكثيرين منهم أن يجعلوا من دولتهم دولة إسلامية مثالية، وسرعان ما لمس هؤلاء أن الأمر ليس يسيرا كما توهموا، ذلك أن غرضهم لم يكن منطويًا على غموض فقط، لم تكن خطتهم في شأنه غير واضحة الأساليب من ناحية تنفيذها، ولكن كانت هناك حقيقة طاغية عليه وآخذة بخناقهم يومًا بعد يوم، تلك هي أن الوجه الديني للدولة الجديدة لم يكن هو وجهها الأوحد بل لم يكن وجهها

الأهم كانت هناك وجوه أخرى أسبق منه في المنطق وفي الواقع، ولقد بدت بعض تلك الوجوه منذ اللحظة الأولى، فقد اقتضى تقسيم القارة الهندية الذي أنشئت على أساسه باكستان نشاطًا عارمًا بها صاحبه من مذابح واضطرابات اقتضى ذلك نشاطًا ضخمًا حتى تتحول باكستان إلى شيء مذكور بدلاً من أن تتفتت، أن تسقط تحت وطأة الظروف والعدو، وكانت الحاجة الماسة إلى ضمان الحياة للدولة الناشئة أكبر في البداية من إعطائها الشكل الديني أو أي شكل آخر ولقد ظلت تلك الحاجة هامة بل وطاغية، وكان لابد من أن يقرر أصحاب الدولة الجديدة الإتجاه الذي تسلكه تلك الدولة ومن الممكن أن يتصور الباحث أنه كان لابد من إنقضاء وقت غير قصير قبل أن يسمح عالمنا الحديث العنيد الإتجاهات لتلك الأمة الناشئة بأن تتمتع برفاهية الإختيار، أو حتى بأن تفكر في ذلك الإختيار تفكيرًا حرًا، بل كان من الممتع أن تصل إلى حرية في الاختيار لا تقع ضمن نطاق الظروف المتطورة.

كان هذان الاعتباران، وهما الجذب الديني وجذب الواقع العالمي دائمي الضغط على شعب الدولة الجديدة، وسيظلان كذلك، من ناحية كانت تجذبهم رغبتهم في اتخاذ خطوات تمنع إنهيار دولتهم، ومن ناحية أخرى كانت تجذبهم رغبتهم في إعطاء شكل معين لتلك الدولة ومع أن هذين الإعتبارين مختلفان فإنهما غير مقطوعي الصلة، فضمان الحياة للدولة الجديدة، وإعطاؤها الصبغة الإسلامية يمكن أن ينظر إليهما من الناحية النظرية على أنهما متناقضان من زوايا معينة، كما يمكن أن ينظر إليهما من زوايا أخرى على أنهما متكاملان.

الولاء للإسلام كان ضمانًا لبقاء باكستان

إن حيوية أية أمة تبنى على أشياء كثيرة، ليس أهونها شأنًا روحها المعنوية، وفي حالة باكستان، كانت صبغتها الإسلامية ضمانًا لولاء منشئيها لأهدافهم، ذلك الولاء الذي لم تكن باكستان لتعيش الشهور الستة الأولى من حياتها بدونه، وبغير استمرار ذلك الولاء مع المثابرة عليه ودوام البناء في نطاقه ويستطيع الإنسان أن يتنبأ بالمستقبل، فلن تستطيع باكستان بغير ذلك من الولاء المقيم أن تتغلب على الصعاب الجمة التي لا بد أن تواجهها في المراحل التالية من حياتها.

ولعله من البديهي كذلك أن كون الباكستان دولة إسلامية يعتمد بدوره على حيويتها، فأعظم الباكستانيين مثالية إسلامية لا يستطيع أن يصب الدولة الجديدة في قالب مقرر أو في صورة طالما ظلت حلمًا لأصحابها إلا إذا أمن، أو ترك حكومتها تؤمن أسباب وجودها المستمر، ومع أن هذه الحقيقة تبدو بديهية ولكنها ذات مغزى عميق حتى من الناحية الدينية، ذلك أن ضمان الحياة لدولة من الدول في عالمنا المتطور المتنافس المعتمد بعضه على بعض، المتابع للقيمة العلمية، اليوم، يتطلب كثيرًا من شروط «العصرية» من التصنيع إلى المرونة الفكرية، الأمر الذي قد لا يكون واضحًا بل قد لا يكون ضمنيًا، في قالب الدولة المقررة من قبل أو في صورتها التي ظلت حلمًا لأصحابها.

في هذه الفترة الأولى من حياة باكستان بدا واضحًا بسرعة للمسئولين من الباكستانيين، ولأصحاب الخيال منهم كذلك، أن بقاء دولتهم ليس

أمرًا هينًا في ذاته، ففي يومنا هذا – كما في كل يوم آخر – يتطلب مجرد البقاء يقظة لا تهن، وتخصصًا علميًا وفنيًا عالي المستوى، وذكاء خارقًا وعملاً شاقًا متواصلاً، يتطلب مجرد البقاء أقصى مقدرة ونشاط لإمكانيات الأمة في ميادين متعددة، من البحوث الكيميائية إلى المالية الدولية، ومن القوة العسكرية إلى المبادئ الإقتصادية ومن الفطنة الإدارية إلى دقة الحس السياسية.

تطور في القيادة

مثل هذه الاعتبارات لم تغير فقط المثل الأعلى الذي كان قيد النظر عند إنشاء باكستان ولكنها طورت قيادة الدولة، وحولتها عن الأهداف الدينية، وكانت هناك عوامل أخرى إلى جانب تلك الاعتبارات، أثرت بدورها على التطور التاريخي للدولة الإسلامية الجديدة، وكانت لهذه العوامل آثارها العملية، بل آثارها النظرية عند أصحاب الذكاء.. من هذه العوامل الضعف البشري، ومن هذه العوامل الطيبة الخاصة لنوع القيادة الذي كان يسيطر على مقادير باكستان.

أما الضعف البشري فإنه إن كان يحتاج إلى قليل من التعليق فإنه يحتاج إلى كثير من الإهتمام ذلك أن الأهداف القومية، مثالية أو عامية إسلامية أو إدارية فنية، شيء، والدوافع الفردية شيء آخر، وهذه الدوافع قد تتراوح بين المصلحة الخاصة والطموح، و بين الجشع وخراب الذمة، على نطاق أبعد ما يكون عن الضآلة فالمسلمون الباكستانيون شأنهم شأننا جميعًا، يراودهم الضعف البشري حتى لتجرفهم مطالب الحياة اليومية إلى

درجة تقصي من أبصارهم أهدافهم بعيدة المدى، وخيالاتهم المثالية التي كانوا يجرون وراءها في بداية الأمر فالمسلمون الباكستانيون يغلبهم الضعف البشري إلى حد أن بعضهم قد يلتحق بخدمة الحكومة أو بالجامعات أو بالوظائف الاجتماعية الهامة لا لكي يخدموا وطنهم أو قضيتهم، وإنما لمجرد أن يكسبوا لقمة العيش، لقد حدث في باكستان مثلما حدث في بلاد غيرها، تحول عن الأهداف تحت تأثير ذلك الضعف البشري، حدث ذلك في باكستان حتى إنه وقع في بعض المقاطعات في السنوات الأولى من حياة الدولة أن طردت حكومات برمتها بتهمة سوء الإدارة وإنحراف السلوك والفساد، ولقد وجد أهل الباكستان في مجتمعهم، بل لقد واجهوا أمثلة من ذلك الإنهيار لكثرة أذهلت غلاة المتدينين من أصحاب الدولة الجديدة.

نظام اجتماعي فاسد

إنه فساد بالغ الأهمية بالنسبة لتاريخ باكستان الاقتصادي والسياسي، كما هو بالغ الأهمية في نواح عديدة دينية من بينها زيادة الإدراك للمشكلة الخلقية في السلوك القومي، وقد يؤثر ذلك في الفكرة التي كونها الباكستانيون عن دولة إسلامية مثالية من طريقين يعارض كل منهما الآخر. فمن جهة نجد أولئك الذين ينادون بضرورة إيجاد توجيه شامل يصرون على أن النظام الاجتماعي الحالي نظام فاسد ومنحط وخليق بأن يحل محله نظام إسلامي آخر، مبني على أسس، تتفق والعقيدة الإسلامية أكثر من ذي قبل، ومن جهة أخرى فقد تبين البعض أن الادعاءات السياسية بوجود مجتمع إسلامي قد فقدت الثقة بها، ورأوا أن الشرط الأساسي الذي يشترط في أية حركة جديدة هو أن وجد رجال لهم من الخلق القويم والأمانة

ابتداء بدلاً من العمل على إيجاد نظام سياسي، إذ مهما كان هذا النظام مثاليًا من الوجهة النظرية ولم تتوفر في القائمين عليه الأمانة والخلق الكريم لأمكنهم أن يفسدوه.

ومما زاد في ترددهم، انتشار النفاق، فمثلاً بينما نرى الأشخاص في حياتهم العامة يدعون الأهداف السليمة، سواء من الناحية الإسلامية أو من الناحية القومية، تحقيقًا لأهدافهم الملتوية، نراهم يخفون هذا الانحطاط الخلقي وراء طاعة شكلية لقواعد الدين، ويلبسون وسائلهم الخبيثة ثوب الدين، فيخدعون العواطف الدينية ويتهمون كل من يتصدى لهم بنقد بأنه خارج على الدين. هذه هي نفس القصة القديمة التي استغلت بها السياسة البغيضة أمور الدين وقد توسل رجال الحكم بهذه الوسيلة كي يستمروا في الحكم، كما توسل بها المعارضون لهم في نضالهم للوصول إلى مقاعد الحكم، ويبدو أن هذا المسلك شائع في العالم إذ طالما استغل الدين لإثارة الشعوب لأسباب زائفة.

وقد دفعت هذه التطورات الباكستانيين أولئك الذين يبتغون أن يجعلوا من دولتهم دولة إسلامية إلى التفكير، كما اقترن أولئك الذين يهتمون بتقدمها الدنيوي بملاحظات هامة. وقد أمكن التخلص من وجهتي النظر المتقدمين بعنصر من أهم عناصر التاريخ الباكستاني هو طبيعة القيادة ووظيفتها في هذه الدولة.

من الذي تولى زعامة الدولة الجديدة؟

وكانت زعامة هذه الدولة الجديدة في البداية في يد أفراد من مسلمي الطبقة الوسطى التي تأثرت بالمدنية الغربية، والتي ظلت مشغولة – لمدة

قرن من الزمان – بتقرير وضعها في الهند من النواحي الإجتماعية والإقتصادية والثقافية، وكانت هذه الأقلية القليلة تتميز من بين مسلمي الهند بوجه عام بالتجربة الواسعة، والتحول الحقيقي السريع إلى العصرية، والإتصال بمصادر الثروة والقوة والفكر في عالم القرن التاسع عشر. أما الزعامة السياسية في باكستان فقد تولاها حزب الجامعة الإسلامية. وأما في ميادين الإقتصاد والإدارة والثقافة فقد كانت الزعامة في يد رجال من الطبقة السابق الإشارة إليها، وبهم بدأت باكستان حياتها، كانت هذه الطبقة تستعمل اللغتين الأوردية والإنجليزية.

وثمة صفتان تلازمان هذه الزعامة بالنسبة للمشكلة التي نحن بصددها. الأولى: صلاحيتها لبعث الحياة في أوصال هذه الدولة الجديدة، وثانيتهما: عدم قدرتها على جعلها دولة إسلامية.

وكانت تضم أولئك الذين توافرت لديهم الصفات اللازمة لإدارة دولة، واجتمعت فيهم الثروة والدربة والإلمام بالأمور الإدارية والسياسية والإجتماعية والإقتصادية والعملية، والواقع أنه لولا إدارة هؤلاء لتعثرت باكستان سريعًا، إذ وفقوا إلى تحمل عبء إدارة وتنظيم بلادهم بشكل يسمح لها بأن تأخذ مكانها في العالم، وخطوا بها نحو البناء والتعمير. ولا نقصد من ذلك إلا القول بأنهم نجحوا نجاحًا لامعًا، بل تبيان أن ما ألقي على عواتقهم من واجب كان ثقيلاً هائلاً، وما كان غيرهم لينهض به كما نهضوا هم به. على إنهم – برغم ما أدوا وأنجزوا من عمل – فشلوا في الحصول على ثقة مواطنيهم حتى لقد بدوا في نظر البعض متمسكين بمقاعدهم في الحكم بعد أن زالت عنهم صفة الزعامة.

ولسنا نتحدث هنا عن حزب سياسي، وإنما عن طبقة كاملة تضم الإداريين والموظفين ورجال الأعمال، وكان لهذا الفشل أوجه كثيرة، يتمثل أخطرها في العجز عن تزعم فطري في الدولة الإسلامية وبدأ الفشل في مثل هذه الظروف سياسيًا أدبيًا، وبدت نتائجه باعثة على اليأس والقنوط.

ومن السخرية إن كانت نفس الصفات اللازمة لتجعل من هؤلاء زعماء عصريين، هي التي جعلتهم غير صالحين للزعامة في هذا المجال الخاص، فقد كان من شأن تاريخ الهند الإسلامية في القرن الماضي أن جعل أولئك القادرين على خدمة باكستان في حياتها العصرية، بعيدين عن الموارد التي تساعدهم على جعلها إسلامية، وقد ظهر هنا بوضوح في الفرقة الكبيرة بين التعاليم الدينية والعصرية.

فعندما شرعت العصرية تتوغل في المجتمع، تأثرت بها قلة من أفراده في النواحي الثقافية والإجتماعية والإقتصادية، وتولوا الزعامة في كافة الميادين عدا ميدان الدين الذي بقي على ما كان عليه في عصوره الأولى من حيث التعاليم والتفسير والبيئة والزعامة غير متأثر بالحياة الحديثة.

ويبدو ذلك واضحًا في نظام التعليم، فكان للدراسات القديمة الإسلامية التي سادت العصور الوسطى، معاهدها الخاصة التي تختلف عن تلك التي أعدت للدراسات غير الدنيوية، وكان التباين فيها غير قاصر على المواد التي تدرس ونوع الطالب الذي يتعلم في كل من النوعين، بل تعدى ذلك إلى أسلوب التعليم والقيم، وأصبح هذا الإختلاف أساسيًا في النظام الإجتماعي كله وحتى عندما بذلت محاولة للجمع بين نوعي التعليم

في مدرسة واحدة، إنتهت إلى مجرد الجمع المكاني دون أن ينشأ بينهما توافق أو تناسق، وهكذا وجد بالمجتمع فريقان الأول نشأ على الدراسات الدينية، والثاني تعلم تعليمًا حديثًا ومضى في الحياة يشعر بالدين ويخدمه أكثر مما يفهم.

ويؤكد كثيرون أن مرد المشكلة الأساسية التي يواجهها المسلمون إلى ما يعانيه الإسلام من ضغط العصرية عليه، والواقع أن هذا الحكم يبدو سطحيًا، فتاريخ البشرية يدل على أن التقاليد – ومن بينها التقاليد الدينية – إستهدفت دوامًا للضغط من جانب «العصرية» ومرد حيرة المسلمين اليوم إلى التباعد بين الإثنين، إذ لكل منهما وجهة تختلف عن وجهة الآخر الأمر الذي كان بالغ الأثر في باكستان.

لقد تبين الباكستانيون أن عليهم وقد أصبحت باكستان دولة مستقلة، أن يوفقوا بين عقيدتهم وبين حياتهم العصرية، وإن هذا التوفيق على قدر من الصعوبة سببه أن تقاليدهم الدينية بقيت مغلقة لمدة خمس وسبعين عامًا لا ينفذ إليها أي مؤثر، فكانت بعيدة عن أي تطور طرأ على بقية نواحي الحياة عندهم، وأصبحت غير متمشية مع تطورات المجتمع البشري الحديث الذي يتطلعون إلى المشاركة فيها مشاركة إيجابية.

ومما ساعد على اتساع الفجوة أن بقي الحماس للدين على أشده بتأثير المدافعين عن العقيدة، وبالرغم من أن ثمة خطوات إستهدفت سد هذه الفجوة عن طريق إعادة تفسير الإسلام، إلا أن ذلك كان قاصرًا، على مظهر الدين دون لبه وجوهره.

لقد عجز حكام باكستان عن أن يشيعوا في أهلها روح إسلامية بناءة واقعية تدفعهم إلى الاهتمام بالشئون القومية، بل ولم تكن هذه الروح تمتلك الحكام أنفسهم وكان لإنعدام المثل العليا لدى من تصدوا للزعامة هنالك خطورته وأثره البالغ، فمأساة باكستان مردها إلى عدم كفاية الروح المعنوية للباكستانيين.

وإن مجرى الحوادث في باكستان ليدل على أن عددًا كبيرًا من أفراد الطبقة الحاكمة قد فقدوا صلتهم بالتعاليم الأساسية للدين وبالتالي لم يكن في مقدورهم الوصول إلى آراء تصلح لدولة إسلامية في القرن العشرين، فضلاً عما بدأ من عجزهم عن الإستجابة للقيم الأدبية، إذ كانوا فريسة الطمع والجشع.

إن الاضطرابات القاسية التي حدثت في بنجاب سنة **١٩٥٣** أشد هذه الأمور خطورة، لما نجم عنها من مذابح ذهب ضحيتها «المارقون على الدين» فقد ثارت الآلاف من المواطنين يعضدهم الشعب في هذا الجزء ضد «الأحمديين» الذين يختلفون عنهم عقيدة ونظموا لهم المذابح، كما ثاروا ضد حكومتهم،لأنها لم تعلن أن هؤلاء منبوذون دينيًا وسياسيًا ولهذه الحركة نواح متعددة منها أنها مظهر من مظاهر السخط العام لما وصلت إليه باكستان من إنحطاط بعد تباشير النجاح الأولى، كما هي تنفيس عن الشعور المرير بالإخفاق في تحقيق أماني البلاد في جعلها دولة إسلامية وفشل القادة في هذا المضمار، إذ لم يكونوا جادين فيما إتخذوا من إجراءات لتحقيق ذلك. إن هذه الحركة التي وجهت ضد «الأحمديين» وما إقترنت به من فظائع لتكشف عن هذا الشعور وقد إتخذ شكلاً دينيًا سابقًا

لأوانه، حتى لقد سبب صدمة وأضرارًا، كما أسفرت عن الفشل وأسبابه في إيجاد مادة إسلامية صحيحة للأماني الإجتماعية والسياسية. وهناك مثل آخر، وإن كان يختلف عن سابقه، إلا أنه نتيجة لضعف المثل القومية، وهذا المثال خاص «بالحد الإقليمي».

وهذه المسالة كانت هي الأخرى شديدة التعقيد، إذ لم يكن من سبيل للتوفيق بين شرق وغرب باكستان. إن الحياة في هذا العالم ليست بالعمل الهين، وعلى الباكستانيين ألا يهملوا، ولو للحظة واحدة، أمر تدبير الحياة لأمتهم.

الفصل السادس

الهند

المجتمع الهندي الإسلامي

لقد تضمن انقسام الهند في سنة ١٩٤٧ إنفصال مجتمعها الإسلامي عنها، وكانت هذه الحقيقة صدمة لهذا المجتمع فقد أوجد مسلمو الهند باكستان بوصفها مجتمعهم الواحد، وكان من نتيجة تعضيد الموجة الإسلامية المفاجئ لهذا الانفصال أن بات عليهم أن يقفوا متحدين، ومن المؤكد أنهم وفقوا في الإيحاء لأنفسهم بأنهم كذلك ولكن الواقع أن نجاح العصبة الإسلامية في ذلك خلق أمتين من مسلمي الهند.

أصبح المسلمون الذين سكنوا الهند أمتين، لا يفصل إحداهما عن الأخرى الفواصل والحدود السياسية فحسب، بل إن كل واحدة منهما تواجه مشاكل تختلف بل وتتعارض مع سياسة الأخرى. حتى لقد أصبح ما فيه النفع للواحدة منهما قد يجلب الضرر للأخرى وتطورها التاريخي الإسلامي يختلف كذلك ويتعارض، فمصيرها مختلف ومسئوليتها مختلفة كذلك.

كان تعداد المسلمين في هذا الجزء سنة ١٩٤١ ٩٤.٤ مليون نسمة وإرتفع في سنة ١٩٥١ إلى ١٠٤ ملايين، ومن هؤلاء نسبة ٣.٣% من الكشميريين، وهؤلاء مشكل في حد ذاتهم، وكان أكثر من نصف مسلمي

الهند، أو على التحديد ٥٦.٧% منهم يقطنون المنطقة التي أصبحت فيما بعد «باكستان» وكذلك هاجرت نسبة ٦% بعيدًا عن الهند إبان إشتعال نار الإنقسام، وكان غالبيتها من مسلمي شرق البنجاب، ومعهم جماعة من غرب البنجاب، فضلًا عن % قضوا نتيجة لإحداث هذه الحركة الإنفصالية، وسكن أكثر من ٣٥ مليونًا من المسلمين في هذا الفصل.

إن ذاتية هذه الجماعة الجديدة لها ناحيتاها: السلبية والإيجابية ، وقد ذهبت كثرة من أعضائها إلى تعريفها بقدر ما يسمح به وضعهم وشعورهم، تعريفًا سلبيًا بأنها ذلك القسم من المجتمع المسلم الهندي الذي كان في وقت ما.. ولم تشمله باكستان، كانوا يرون أنفسهم باكستانيين أغلقت في وجوههم أبواب ديارهم، وأبعدوا عنها.

والواقع أنهم يكونون مجتمعًا ضخمًا وبالغ الأهمية، بل إن من المؤكد أنه من أهم المجتمعات المبدعة في العالم الإسلامي، وفي رأينا أن ما سيكونونه في المستقبل لمن أهم مسائل الإسلام المعاصر، بل لعل ذلك أكثر أهمية مما يظنون هم أو المراقبون الخارجيون وقد شرعوا يعدون فصلًا من أهم فصول التاريخ الإسلامي المعاصر.

ولا تقتصر هذه الأهمية على النواحي الإقتصادية أو الثقافية أو غير ذلك فحسب، وإنما هي تتعداها أيضًا إلى نطاق الدين، فهذه جماعة تحاول أن تحيا، بل أن تخلق حياة جديدة، فالإسلام الذي سيعمر قلوبهم، سيكون ملكًا لهم، ولا بد أنهم محققون نمطًا آخر من العقيدة، يختلف عن تلك التي

تتطور في باكستان، بل من الممكن في مثل هذه الأوضاع أن تكون أكثر تقدمًا وحيوية، وأوفر إبداعًا وإنسانية.

وللتدليل على ما لهذه الجماعة من أهمية ذاتية يتعين النظر إليها من ثلاث نقاط: عدد هذه الجماعة وتقليدها الموروث، ووضعها في الهند ونلاحظ أنه قد تبدو هذه النقطة الأخيرة «وضعها في الهند» من حيث كونها أقلية، في نظر الكثيرين، وخاصة في نظرهم أنفسهم.. قد تبدو أنها ليست في صالحهم.

وإذا كانت أولى العقبات في سبيل معرفتهم هم بذاتيتهم هي صلتهم العاطفية بباكستان واستمرار شعورهم بأنهم مبعدون عنها، فلابد أن تكون العقبة الثانية صلتهم العاطفية بالهندوس وجزعهم من تغلبهم عليهم، ومن جديد، فإن إدراكهم لماهيتهم هم مسألة عمل على كبتها جزعهم الناتج عن صلتهم بأولئك الذين يحيطون بهم.

أما عن النقطة الأولى: عدد الجماعة، فإن الأعداد وحدها ليس لها الأهمية النهائية، فإيران وتركيا يبلغ عدد سكان كل منهما قرابة العشرين مليونًا، ومع ذلك فليستا أقل أهمية من الأمم الإسلامية الرئيسية في العالم الإسلامي، والباكستان، وأندونيسيا، أضخم المجتمعات الإسلامية في العصر الحاضر، ليست لهما الصدارة بين الشعوب الإسلامية، رغم إحتمال تقدمها العظيم في المستقبل، هذا مع ملاحظة أن عدد مسلمي الهند حاليًا يتراوح بين الخمسة والثلاثين وبين الأربعين مليونًا، وليس هذا بالعدد القليل.

وأما من ناحية التاريخ، فالمجتمع الهندي المسلم لا يأخذ مكانه في أول القائمة، ولكنه كذلك ليس في آخرها، وبالرغم من أنه كان في الماضي أقل من غيره –كالعرب مثلًا– فيما أمد به التاريخ الإسلامي.. إلا أنه كان من الناحية الأخرى أكثر من بعض الشعوب الإسلامية الأخرى –كالشعب الإندونيسي– وليس المعيار إذن بالكثرة أو القلة في العدد. وإنما يمكن القول في بساطة بأنه عاون وأمد بالكثير الذي يسترعي الإنتباه.

وليست المسألة مجرد أربعين مليونًا، بل إن هذا العدد الضخم يقف على رأس تقليد جليل الشأن عمره ألف عام، أن هذا التقليد لينظم كل شيء، الحكومة والفنون والتفكير الديني وممارسته عملًا –كالصوفية– ولا شبهة في عظمته والواقع أن ما من أحد يحق له مناقشة ما لهذا التقليد من قيمة من الناحية الإسلامية.. إنه خلق حياة أو ثقافة متميزة. وإنما الذي يناقش هو مدى ما للمجتمع من قدرة على الاستمرار فيه. وقد سبق لنا أن أوضحنا حداثة الوضع الحالي.. ولكنه رغم ذلك قد بلغ الأوج في تطور طويل.

والباكستانيون ومسلمو الهند سواء في وراثة هذا الماضي. وكل منهما يستند إلى نفس التراث أو التقليد، ومن الناحية الثقافية نجد كلًا منهما وريثًا لنفس التراث المنحدر إليهما من الإسلام الهندي والفرصة بعد ذلك متاحة لكل منهما ليصنع منه ما يستطيع.

وإذا كانت المقارنة جائزة بين المجتمع الإسلامي الهندي وبين غيره من المجتمعات الإسلامية الهامة أربعة –تركيا وإيران وباكستان وأندونيسيا– لها

شكل الدولة المستقلة بالمعنى الذي يقصده الغربيون من هذا التعبير. أما الهنود والعرب فلهما وضع خاص يختلف من الواحدة إلى الاخرى. أما العرب فعلى الرغم من رباط اللغة والثقافة، فإنهم متحدون سياسيًا، وأما الهنود المسلمون فجميعهم مواطنو دولة واحدة.. تعتبر من وجهات النظر المختلفة.. وبشتى المقاييس واحدًا من أهم الدول في العالم، وأن ما يضعهم هذا الوضع الفريد بين المجتمعات الإسلامية الهامة. وما يضفي على تطورهم سمات الأساسية هو أنهم مواطنون في الجمهورية الجديدة التي يشتركون فيها مع عدد ضخم من غير المسلمين.

لقد سبق القول بأن المشكلة الأساسية للمسلمين المحدثين تكمن فيما بين عقيدتهم وتاريخهم من تباين وتناقض. ويبلغ هذا التناقض غاية مداه عند مسلمي الهند.

إن هذا التفسير ليغفل كثيرًا من جوانب الوضع التاريخي بعضها ثابت وبعضها الآخر محتمل كما يغفل كثيرًا من الإعتبارات الأساسية في التطور الديني. مرد ذلك إلى العجلة وعدم الإستيعاب، الأمر الذي سنتداركه فيما يلي:

لقد ولد هذا المجتمع في شكله الحالي وسط سفك الدماء والبغضاء حفيفًا في عالم تسوده الحروب. ففي سنة ١٤٧ تمخضت الإضطرابات والمذابح التي لازمت الحركة الإنفصالية عن قيام دولتين: الهند وباكستان وإذا كانت مظاهر العنف والقسوة التي سادت في تلك الأيام قد أثرت على هاتين الدولتين، فنستطيع أن نتصور، مدى ذلك الأثر في نفوس

الأقليات التي تعيش في كل منهما وهي منطوية على الفزع والخوف.

ولما هدأت المشاعر، وزالت المخاوف، بقيت الصعاب التي تخلفت عنها، على أن الهند سرعان ما نفضت عن نفسها أوحال أيام التفكك الأولى، وواجهت بحماسة الأزمات التي إعترضت سبيلها كنقص الأغذية وغيرها، ووطدت العزم على البناء، وعلى أن تكون دولة حرة في عالم مضطرب. وقد شارك في هذه المشروعات بعض المسلمين وخاصة أولئك الذين آثروا القومية الهندية نافرين من الإنفصالية التي نادت بها العصبة الإسلامية. لقد كرسوا حياتهم في إخلاص لخدمة الهند ورحبت هذه بهم وعاملتهم على قدم المساواة مع بقية مواطنيها أما غير هؤلاء ممن أصروا على الإحتفاظ بسمة الأقلية، فقد عاشوا في عزلة، لا يثقون ولا يوثق بهم، وأصبحوا منطوين منبوذين مرتابين خائفين.

لقد أساءت هذه الطائفة الظن بكل الأوضاع القائمة في الهند ورأتها جميعًا على خلاف الظاهر منها مؤدية إلى إضطهادها.. فالنهضة والبناء لم يقصدوا بهما الحرية.. مجرد إتاحة الفرصة –دون أي ضابط– لخصومهم للتنكيل بهم وسحقهم، وديمونة الدولة الجديدة.. مجرد نفاق والديموقراطية.. حيلة حسابية لمحو كل أثر فعال لأصواتهم.

ونستطيع أن نقول بوجه عام أنه ما من أقلية دينية في العالم إلا ولديها أسباب مختلفة لتبرير خوفها.. أو المطمئن أن يكون الإنسان واحدًا من أقلية في أي مكان.

على أنه بالنسبة للهند والجماعة المسلمة فيها، فمن الظلم أن نقلل

من شأن دستورها وما حوى من نصوص، أو من شأن الروح السائدة في حكومتها وفي مجتمعها روح الحرية والتسامح، أو نقلل من أهمية الإعتبارات الإنسانية التي يدين بها زعماء الهندوس الذين تولوا حماية الأقلية المسلمة وجنبوها بطش الغالبية وإنتقامها ولم يكن هذا بالهين اليسير.

ولكن الأقلية هي الأقلية دائمًا لها مخاوفها. ولديها أسباب هذه المخاوف، كما لها ظروفها الإقتصادية والثقافية والسياسية. وإن ما قدمنا به لهذا الفصل من وصف للمجتمع الهندي الإسلامي في المقارنة بينه وبين المجتمع الإسلامي في باكستان، لم نقصد به أن ليس ثمة مشاكل يواجهها المجتمع الأول.

التفكك بسبب باكستان

يعتبر مسلك باكستان العامل الثاني في شقاء مسلمي الهند، فقد شارك مسلمو باكستان مشاركة ظاهرة فيما يعاني المسلمون في الهند من إضطراب في حياتهم، بل كان وجود باكستان نفسها مزعزعًا لمركز المسلمين في الهند، فقيامها كدولة وإنفصالها عن الهند جعل من مسلمي الهند أقلية أصغر بكثير مما كانت من قبل، إذ كان المسلمون في الهند قبل تقسيمها يكونون نسبة لها إعتبارها، ويزداد أثرها إذا إنضم إليهم المنبوذون.

لقد اقترن قيام باكستان بأخطاء كان تأثيرها سيئًا على مسلمي الهند، فالأحداث التي صاحبت عملية التصويت على إقامتها، والسياسية التي وضعت لها مستهدفة رعاية مصالح المسلمين وحدهم، والإعتداءات التي وقعت على غير المسلمين بها، كل ذلك كان ينعكس أثره على مسلمي

الهند فيدفعون ثمنه.

ورغم كل شيء فقد انقضت أيام سنة ١٩٤٧ المخيفة، وخطت الهند خطوات سريعة وواسعة في سبيل نسيانها، برغم أن بعض الجراح لم يندمل بعد، وفي أقل من عشر سنوات أيقنت الأقلية الإسلامية أن مخاوفها في سبيلها إلى زوال وفارقها الخوف من العمل على إبادتها، كما كان يظن كثيرون من أفرادها، ولم تقدم الغالبية الهندية على الثأر منها، إما غفرانًا وإما نسيانًا.

على أن هذه الإتجاهات الطيبة لدى الأغلبية، كانت تتأثر بمسلك باكستان وما تأتيه من تصرفات يومًا بعد يوم، وخاصة تجاه المجتمع الهندوسي فيها، أو في الهند نفسها، وكانت هذه التصرفات تؤثر على موقف الأغلبية الهندية إزاء مسلمي الهند، وأي زيادة في العداء بين الأمتين وأي إضطهاد يستهدف له الهندوس في داخل باكستان سرعان ما ينعكس أثره على مسلمي الهند ممعنًا في الإساءة إلى مركزهم، وكل حادث على الحدود، وكل توتر بشأن نزاع على مجرى مائي أو حول ملكية اللاجئين، كان له رد فعل في حياة المسلمين في الهند.

ومشكلة كشمير وتحولها إلى باكستان، أو حتى الضغط من أجل هذا التحول، كان ضد مصلحة مسلمي الهند، وقد تنبه زعماء هؤلاء الأخيرين إلى ذلك، وعبروا عما فيه من خطر، ولكن الباكستانيين غير قادرين على فهم ذلك وتقديره.

وليست كشمير على أي حال أهم مسألة في هذا النطاق، إنها وغيرها

من المسائل المشابهة كانت تطفو على السطح، ولكن آثارها المتخلفة عنها. كانت تصل إلى الأعماق، وبالتالي تصبح خطيرة على أن الأهم من هذه الأعمال نفسها الفلسفة التي تستند إليها وتصدر عنها والتي تتمثل في القواعد التي أقامت عليها باكستان سياستها. وما جرت عليه من تفسير لمصالح المسلمين والقومية الهندية، على الرغم من أنها تعرف أن ليس لها من حق على مسلمي الهند خارج أراضيها من الناحية الرسمية، فقد كانت تصرفاتها تدل على أنها تصر على قيام هذا الحق من الناحية العاطفية غير الرسمية. وقد بقي موقف باكستان من الهند منطويًا على عداء أساسي ورفض قبول سمتها غير الإشتراكية، وبقي شعبها عاجزًا عن إدراك دنيوية الدولة الهندية الجديدة ساخرًا بها.. إنها لم تدرك أن مركز المسلمين في الهند يتوقف إلى حد كبير على عدولها عما إتخذت من سبيل السخرية بالدنيوية الهندية وتشجيع مسلمي الهند على عدم الولاء لدولتهم.

ومجمل القول إن هذا الوضع كان نتيجة لأن كلًا من الدولتين تتبع سياستها الخاصة دون نظر لما يمكن أن يكون لهذه السياسة من آثار في الدولة الأخرى. بل إن الأمر يجاوز هذا الحد، فالفساد يستحيل إلى تناقض في الفكرة الأساسية التي يقوم عليها برنامج باكستان. لقد نادت العصبة الإسلامية بأن «مسلمي الهند يكونون أمة». وأخذت باكستان هذا القول وأصرت عليه.. على ما فيه من إنكار لوجود الهند ذاتها.. وحتمًا كان يؤدي ذلك إلى إضطراب العلاقة بين الهند وباكستان.. فهذه الأشياء عندما تترجم إلى أفعال لابد منتهية إلى التمزق والإنشقاق. إن مسلمي الهند يدفعون ثمن هذه التصرفات، ويعانون من جراء هذه الأفكار التي لا

سبيل إلى وضعها موضع التنفيذ.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه ليثقل على نفوس مسلمي باكستان أن يعتقدوا أن مسلمي الهند لا يلقون معاملة عادلة فالمشاركة الوجدانية بين الجماعتين ما زالت قائمة.. وهي نفسها من أسباب النفور الحالي.

إن المسلمين الهنود كما يبدو في مركز لا يحسدون عليه، إذ يتوقف مصيرهم على جماعتين متباعدتين.. وإن مسلك باكستان ليؤثر على هذا المصير، كما يؤثر عليه أيضًا مسلك مواطنيهم الهنود، فقتل غير المسلمين في لاهور يضر المسلمين في الهند، وأي مجانبة للعدالة في «دكا» يجعل أملهم في العدالة صعب المنال. وكلما تمسكت باكستان بدينها الإسلامي، كلما شعر مسلمو الهند بعدم الطمأنينة.. وبمعنى آخر كلما ازدهر الإسلام في باكستان زاد إنحلاله في الهند. ولا يمكن تدارك هذا الحال إلا إذا عالجوا الأمر بشيء من الحكمة ووجهوا نشاطهم لحل مشكلات بلادهم.. وإذا لم يتمكنوا من ذلك.. فسيظل الخطر معلقًا فوق الرؤوس في داخل البلاد وخارجها.

بوادر الأمل

لقد ظهر إتجاهان متعارضان في المجتمع المسلم الهندي عند ما واجه الموقف المتطور الذي وجد نفسه فيه. أما الإتجاه الاول فيتمثل في هذا النطاق المعيب، نطاق سوء النظام وعدم الأمان الذي لمسناه فيما سبق وأما الإتجاه الثاني فيتمثل في معركة الواقعية المدبرة البطيئة. كأن الإتجاه الأول يأسًا ومحاولة للهروب، في حين بدت في الأخير تباشير فجر يوم

جديد للإسلام ومجتمعه.. يوم قد يحمل في أطوائه حرية سابغة جديدة ونظامًا وتقدمًا مبدعين مما قد تجاوز أهميته الحدود الإقليمية للهند.

ومرة أخرى تطالعنا هذه الأزمة الأساسية للإسلام ممثلة في التناقض الشديد بين الوضع الجديد الذي وجد المسلمون أنفسهم فيه، وبين العواطف والأفكار التي غدت قديمة لا تناسب العصر، إن هذا التناقض في الهند أكثر حدة منه في أي مكان آخر.

ومن المؤكد أن هذه الحالة المعيبة لم تنته بعد. فما زال مسلمو الهند يحسون بعدم الأمان إزاء الوضع الخارجي بين كل من الهندوس أو باكستان والتاريخ الماضي، ولقد كان هذا الشعور بعدم الأمن الداخلي العامل الرئيسي في فشلهم فيما حاولوا من رضاء بمركزهم الحالي، وهروب منه، عاطفيًا وذهنيًا.

لقد لاحظنا مثلًا أن إرتباط الأقلية الهندية المسلمة بباكستان كان من أسباب ضعف موقفها، ومع ذلك فقد كان هذا الضعف ذاته هو الدافع على الإبقاء على هذا الرباط، فإن مسلمي الهند ليست لديهم الرغبة أو القدرة على تبين أن هذا الرباط قد قطع فعلًا، وكلما زاد شعورها بعدم الأمان إزدادت تمسكًا بهذه الصلة الخارجية التي تفسد مركزها الداخلي.

ورغم كل هذا فإن الموقف أخذ في التحسين، إذ بدأ مسلمو الهند يغيرون من موقفهم لما رأوا أن حياتهم متوقفة على الثقة بغيرهم الذين يعيشون معهم، والمساهمة بأمانة وإخلاص في حياة الأمة الجديدة التي يعيشون فيها.

وفي اعتقادنا أن سعادة مسلمي الهند، سواء الدنيوية أو الروحية متوقفة على وقوفهم في ظل الله في قبول وإدراك لوضعهم الجديد، وتحمل مسئوليه مصيرها في هذا الوضع، وقدرة على الثقة بغيرهم وبأنفسهم ومشاركة، حرة أمينة في إبداع حياة الأمة الجديدة.

ولقد خطا المسلمون الهنود في هذا الاتجاه خلال السنوات الخمس الماضية، خطوات واسعة، برغم جميع المشاكل، ومن بين العوامل التي عاونت على ذلك، بل وأهم هذه العوامل، نجاح الدنيوية الهندية، الذي كان نجاحًا جزئيًا ولكنه أساسي، فرأى المسلمون القانون والنظام يسودان والبوليس يقمع الشعب ضدهم، ونظروا الدولة الدنيوية تمنع الهندوس المنتصرين من تحويل مسجد إلى معبد، وبعبارة أخرى تبينوا استطاعتهم العيش في سلام في الهند، وكانت لهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية، بل والتبشير بدينهم. وقد بدت كثرتهم في سنة ١٩٥٦ مستعدة للاعتراف بأن حالتهم أفضل بكثير مما توقعوا.

وزاد إدراك مسلمي الهند، بل وتحققهم، بفضل تحسن المواصلات بين الهند وباكستان، من أن باكستان لم تكن بالمجتمع المثالي واتضح تدريجيًا أن الأمور في الهند لم تكن بالغة السوء وأنها في باكستان ليست طيبة جدًا، وأدرك بعضهم أنهم كأقلية تعيش في الهند، حالتهم أفضل من حالة الأقلية التي تعيش في الجمهورية الإسلامية المجاورة.

وجعلت الانتخابات في الهند الأقلية المسلمة على إدراك لما تعيه السياسة القومية ومعنى الإنسانية، فاستطاع المسلمون الفوز في انتخابات

المجالس البلدية ضد مرشحي «المؤتمر» في دوائر غالبيتها من الهندوس، وتصويت المسلمين في الانتخابات العامة سنة ١٩٥١ ضد الأحزاب الاشتراكية الهندوسية، كل ذلك له أهميته ومغزاه.

على أن هناك في النهاية، حقيقة لها أهميتها، هي أن المسلم الهندي مواطن هندي، وليس هذا بالهين في العالم الحديث، وعلى الرغم من المشاكل فلا شك أن الهند آخذة طريقها نحو التقدم الاقتصادي والفني والثقافي والاجتماعي، وإن كبرى مشاكل المجتمع المسلم الهندي اليوم هي الناحية الاقتصادية، فمشاركة المسلمين الهنود في التقدم الاقتصادي الهندي ما زالت غير محققة، أما نتيجة لتحامل الهندوس، وإما لتأخر المسلمين أنفسهم وطالما وجدت بطالة فالمسلم العاطل موجود لدرجة تبعث على اليأس وبمجرد أن تحل هذه المشكلة فإن تقدم الهند سيحمل المسلمين على جناحه. وعلى أي حال فإن تطور الحوادث ساعد مسلمي الهند على الاتجاه قريبًا من حقائق الحياة الحديثة.

مشاكل التقدم

إن الظروف اليوم مهيأة للإصلاح، والأرض مستعدة لتلقي البذور، ومع ذلك فما زال على القادة أن يعملوا على إيجاد تفسير جديد للإسلام يكون أكثر ملاءمة أو كفاية لمشاكل مجتمع اليوم، فإذا لم يقترن ترك التحامل والتحيز الممزق القديم مقترنًا بتحول إيجابي بناء، فإن المجتمع سيظل سفينة بلا دفة في بحر من الإضطراب والقلق.

ففي الناحية السياسية، كانت القيادة في يد الوطنيين المسلمين الذين

كانوا قبل سنة ١٩٤٧ يؤيدون مشاركة المجتمع الإسلامي لسائر العناصر الوطنية الهندية وخاصة حزب المؤتمر، وقد ظلوا على تأييدهم لهذا الاتجاه بعد التقسيم والإستقلال، وقد نجح هذا البرنامج كأسلوب من الحلول الفردية في حالات متعددة. أما من ناحية المجتمع ككل فواضح أن الحل يجب ألا يقتصر على الناحية السياسية.

أما من ناحية المستوى الديني الشكلي، فثمة خطان رئيسيان، أقلهما أهمية هو الخاص «بجماعة إسلامي» التي تمسكت بصلتها بالحركة الباكستانية المقترنة بإسمها بزعامة «المودودي».. وهذه الجماعة ما زالت قادرة على تحريك الغيرة والحماسة، ولكن الأمل ضعيف جدًا في إمكانها التأييد الديني الضروري للوضع السياسي والإجتماعي «لنظرية الإثنين» والبرنامج المقدم منها ما زال موضع التعديل بما يناسب الوضع السياسي الجديد، وأهم صحف هذه الجماعة «زانداجي» التي تصدر في «رامبور»، وإن لهذه الجماعة ميزة استمرار الصلة الوجدانية بالماضي، مع أن المجتمع كما رأينا يبدو أن احتمال تأييده لتفسير، مهما كان مقبولًا في ظاهر الأمر، بسبب تفككًا في التطبيق، فضلًا عن أنه مقطوع الصلة بمطالب الوضع الراهن الخلقية والاجتماعية والسياسية.

وكانت الزعامة البناءة، زعامة «جمعية العلماء» وهذه المنظمة تتكون من رجال الدين التقليديين وكانت صبغتها هندية وطنية منذ أربعين عامًا، وبعد سنة ١٩٤٧ استمرت مؤيدة تأييدًا شبه رسمي، تدعو إلى أن رفاهية مسلمي الهند من أتباع سياسة وطنية (قومية)، وبرغم أنها ليست جماعة سياسية فقد كان قادتها من الشخصيات السياسية كأعضاء في البرلمان

ووزراء، وفضلًا عن ذلك فقد كانت لها، بوصفها جماعة دينية، شبكة منظمة متغلغلة في القرى ومنتشرة في البلاد، وأهم صحفها «الأودروديلي»، التي تصدر في دلهي.

وقد استطاعوا أن يقيموا خطتهم السياسية على أسس من الدين، أو في القليل أن يصبوها في قالب إسلامي نوعي وقد وجدوا هذا الأساس الديني في فكرة «المعاهدة» المنحدرة من السنوات الأولى للتاريخ الإسلامي عندما عقد النبي «معاهدة بين الجماعة المسلمة واليهود في المدينة» وتذهب فكرتهم إلى أن مسلمي الهند وغير المسلمين بها قد ارتبطوا بمعاهدة بينهم منذ الاستقلال، تهدف إلى إقامة دولة مدنية، وأن الدستور الهندي يمثل هذه المعاهدة وأن دور الإسلام في مجتمع الهند الآن –في رأيهم– هو المحافظة على الولاء للدستور وأن على المسلمين أن ينتجوا في الحياة الوطنية كأقلية في مجتمع كبير.

على أن هذه الجماعة لم تخل من ضعف يتمثل في نقطتين: الأولى: أنها عارضت حركة العصبة الإسلامية فبعدت عن عواطفها وأمانيها، وبالتالي بعدت عما يعتمل في المجتمع المسلم من ضروب ولاء أقيمت بطريقة خاطئة على هذه العواطف والأماني والثانية: أن هؤلاء العلماء على فضلهم ليست لهم الثقافة العصرية التي تمكنهم من النهوض بما يتطلبه الوضع الحالي من أعمال.

وإذا عدنا إلى المستوى الثقافي نجد أن كثرة من المثقفين قد إرتحلوا إلى باكستان، ولم يبق منهم بالهند إلا حفنة قليلة، والقيادة التي تولاها هؤلاء

عنيت أساسًا بمسألة التوفيق بين الثقافة الهندية والثقافة الإسلامية إذ عليهما في الوضع الجديد أن تعملا وتسيرا جنبًا إلى جنب. وقد عولجت هذه المسألة تاريخيًا وموضوعيًا بواسطة كتاب مثل «هومايون كبير» و«عبيد حسين» وتبدو هذه الفكرة أكثر وضوحًا في موضوع اللغة اليوم وهو أن تتخذ اللغة الهندية لغة قومية في الهند فتحجب اللغة «الأودرية» وهل يتعلم المسلمون اللغة الهندية بدلًا من لغتهم الأوردية التي هي وسيلتهم في الحديث والقراءة.

ونعود ثانيًا إلى بحثنا الأساسي المسألة الدينية ووضع مسلمي الهند من تاريخ الإسلام، ونكرر هنا ما سبق أن قدمنا من احتمال أن يكون مسلمو الهند في الخمسين سنة التالية أكثر إبداعًا من مسلمي الباكستان، إلا أن ذلك لن يتم في سهولة ويسر. بل إنه على مشقة كبيرة وفي هذه الناحية يعمل المسلمون على التوفيق بين عقيدتهم وبين العصرية وفضلًا عن ذلك. فإن لهم حالتهم الخاصة بهم بوصفهم أقلية. وقد لحظنا موقف «جمعية العلماء» في هذا الخصوص، وعلينا أن نرتقب ما إذا كان مثل هذا التفكير مقبولًا. أو مجديًا.

وأما مسألة السلطة السياسية والتنظيم الاجتماعي. وهي من المسائل المتصلة بصميم الإسلام فقد كانت تعتبر في الماضي مسألة «نعم أو لا» فإما أن تكون للمسلمين سلطة سياسية أو لا تكون لهم مثل هذه السلطة. إذ لم يسبق للمسلمين أن شاركوا فيها غيرهم. بل إنهم إلى اليوم في باكستان لا يقبلون مثل هذه المشاركة من الأقلية الصغيرة لديهم والمسألة هي «هل يستطيع المسلمون أن يكونوا كذلك بحق دون أن تكون لهم دولة

خاصة بهم؟ وقد أجاب مسلمو الهند وباكستان على هذا السؤال بلا، في قطع وتأكيد، ولو كان تخيلنا للتطور الجوهري للإسلام عبر القرون يقارب الصحة لكانت هذه الإجابة مستندة إلى قدر كبير من العقيدة، فمن لب الإسلام أن هدفه يتضمن إقامة مجتمع إشتراكي. وتنظيم الجماعة الإسلامية في مجموع متماسك يسير وفق التعاليم الشرعية. وهذه هي الفكرة التي تحاول الظهور في الهند.

وإن ما حمل على أنه جزء من التعاليم الأبدية أصبح غير مناسب للوضع الحالي. لقد تعرضت المجتمعات الإسلامية للغزو في الماضي. ولكن كان الغازون هدفًا للوم. وقد ينظر إلى الغزو على أنه وضع مؤقت. فالمسلم إذا وقع تحت سيطرة غيره يظل يرجو الحرية أو يكافح من أجلها، أما مسلو الهند فيتمتعون فعلًا بالحرية التي هي في ذاتها مشكلتهم، ولا أمل لهم في تغيير وضعهم.

قد يحلم البعض بإقامة حكم إسلامي في الهند. ولكن هذا مجرد حلم لا يمكن أن يصبح واقعًا لا دنيويًا فحسب، بل وروحيًا أيضًا. قد يقبل البعض يأسًا فكرة قبول الحكم بواسطة الهندوس، متنازلين عن حريتهم ومؤثرين أن يروا أنفسهم كمجتمع مغلوب على أمره، إن هذا فرار من المسئولية، وباعث على الشعور بالحسرة، وينطوي على كارثة روحية.

إن مسلمي الهند يواجهون في الواقع مشكلة جوهرية جديدة وعميقة، وهي: كيف يتأتى لهم أن يعيشوا مع غيرهم كأكفاء متساوين؟ إنها مشكلة لا سابقة لها من نوعها، بل لم يسبق أن ثارت في كل التاريخ الإسلامي بل

أن الفقه الإسلامي لا يسعف بحل مباشر لها.

ويزيد المشكلة تعقيدًا بعد ذلك. إن شركاءهم من الهندوس لم يعتادوا هم الآخرين العيش مع غيرهم. إن المشكلة صعبة جدًا لدرجة قد يذهب البعض بها إلى أن إقامة دولة باكستان إنما كان لتجنبها.

وقد أثيرت مسألة العلاقة بين الإسلام والديموقراطية بواسطة مسلمي باكستان والهند. فقد تردد في القرن الحاضر أن الإسلام يتضمن الديموقراطية، وليس ثمة مانع من أن يتضمن أي دين الديموقراطية، ولكن الواقع أن الديموقراطية في ذاتها فكرة جديدة بالنسبة للمسلمين والهندوس أيضًا. بل بالنسبة للعالم كله وأن الإتجاه إلى الديموقراطية في الهند منذ ١٩٥٧ لمثير حقًا.. وإن الدور الذي يحتمل أن يؤديه المجتمع الإسلامي في هذا الشأن لهام جدًا.

إن موقف المسلمين في باكستان تجاه الأقلية سيكون إختبار لمدى الاخلاص والادراك، أما في الهند فسيكون ذلك تجاه الأغلبية والأمة كلها، فإلى أي درجة وبأي شكل، وعلى أي أسس البحث الفكري سيعمل المسلمون لإسعاد المجتمع الهندي كله. وكيف سينظرون لسعادة المسلمين الهنود ماديًا وروحيًا مع العمل والولاء للهنود غير المسلمين.

إنها لمسألة على جانب كبير من الصعوبة، ففي سنة ١٩٤٧ حاول المسلمون الفرار من الهنود إلى باكستان، إذ المسلم الهندي هو مسلم كما هو هندي في آن واحد وإن محاولة إنكار هذه الثنائية. قد باءت بالفشل.

وإن مسلمي الهند في بلادهم يمثلون فريقًا من المسلمين في العالم كله،

ولذا كان لأقليتهم خطورتها، فلهم تراثهم وقيمهم وآمالهم في المستقبل ولكن مشاكلهم عامة بيننا وبينهم. كذلك لهم دورهم الذي يلعبونه. والذي يجب أن يمتزج بالإختلافات التي آثارها كثيرون، وبقيم أخرى تختلف عن تلك التي كونوها.. وبأدوار قام بها آخرون.

ويعتمد مستقبل مسلمي الهند، شأنه شأن مستقبل المسلمين في سائر بقاع الأرض، على مواردهم الداخلية وعقيدتهم وقدرتهم على الإبتكار والخلق. وكذلك على علاقاتهم الخارجية مع غيرهم من البشر.

الفصل السابع

مناطق أخرى

الإسلام من حيث المبدأ دين عالمي، ينتشر أتباعه في أنحاء العالم المختلفة، فمثلًا توجد جماعة مسلمة صغيرة في كندا، ولها مسجد في «أومونتن»، ويكون مسلمو الفلبين نسبة ٤% من عدد السكان، وتصل هذه النسبة إلى ١١% في يوغوسلافيا وتجاوز الـ ٥٠% في ألبانيا.

وقد يكون من الحق في مثل الدراسة الحالية، أن نغضي عن مثل هذه الجماعات، ما دامت نظرتنا الشاملة تهدف إلى الإجمال وعلى أي حال فثمة أقسام من العالم الإسلامي يتعين أن تشملها أي دراسة مهما كانت عامة، وهي أندونيسيا وإيران والأقليات العظمى الثلاث في الصين والإتحاد السوفييتي وبين زنوج أفريقيا.

إن المؤلف لتعوزه القدرة على إيفاء التطورات في هذه المناطق حقها من البحث، وهذا هو السبب الملجئ إلى حذفها، وإن كان سببًا غير مقنع، وإنه ليبدو إذن أن نلفت النظر إلى ما وقع من حذف كان سببًا في تشويه لم يكن من سبيل إلى تجنبه، حتى يأخذ مكانه بين ما إكتنف هذا البحث من أوجه قصور خطيرة أخرى.

إن الثغرة أخطر ما في ذلك بإستثناء إيران، ولقد كان هناك في الماضي

إستعداد كبير لتسوية العالم الإسلامي بالشرق الأدنى، ومع أن هذه التسوية قديمة، فقد تعود مستقبلًا وإن كانت أقل حصانة، ومن المؤكد أنها سيعوزها تنقيح جوهري إذا ما أظهرت كل من أندونيسيا وباكستان شيئًا من الحيوية، وقد يحتمل أن يقر في الأذهان إمكان تحول مركز الثقل في العالم الإسلامي في الوقت الحاضر من شواطئ البحر الأبيض المتوسط إلى شواطئ المحيط الهندي، وعلى أي حال يجب أن نوضح ضخامة المجتمع كله، مجاوزين موطنه الأصلي إلى الجنوب من أفريقيا، والشمال الشرقي ووسط آسيا، على أنه من سبق الحوادث أن نقول أن مستقبل الإسلام، كتاريخ المسيحية الحديث، قد لا يكون ذا أهمية في عالمه الجديد.

وتتكون الأقليات الإسلامية العظمى من خمس وعشرين مليون نسمة في الاتحاد السوفيتي، وعدد مماثل أو يزيد قليلًا في الصين، وما يقابل ذلك تقريبًا بين زنوج أفريقيا، وهذه الجماعات على درجة من الأهمية في ذاتها كما هي هامة كذلك من أوجه كثيرة أخرى، حقيقة أنها كانت في الأزمنة الحديثة أقل تعاونًا فيما بينها، وفيما بينها وبين المجتمعات الرئيسية، ويبدو محتملًا أنها ستستمر لبعض الوقت أقل تعاونًا.

وإذا إنتقلنا إلى أفريقيا، فقليل ما نستطيع أن نضفيه إلى توجيه الانتباه إلى حقيقة ظاهرة. هي كثرة الهياج داخل هذه القارة، ويعتبر الإسلام من العوامل الرئيسية الفعالة في الموقف هنالك وقد يبدو واضحًا أن سكان أفريقيا الأصليين يتأثرون في الوقت الحاضر بمدنيات أو قوى ثلاث خارجية هي: الغرب والشيوعية والإسلام.

وإنه وإن كانت مناطق الأقليات هذه ذات أهمية ذاتية إلا أنها تقوم بدور صغير في الأحداث التي نعني بها، على حين تعتبر إيران وأندونيسيا من المناطق الرئيسية بالنسبة لهذه الأحداث وهذه الدراسة، فقد كان لإيران في جميع مراحل التاريخ الإسلامي دور ظاهر معروف، وحتى في الأزمنة الحديثة حظيت الناحية الدينية من تطورها، بقدر من الإهتمام في أقل مما تستحق. أما أندونيسيا، فقد لقيت الكثير من عدم الإكتراث سواء من ناحية الدارسين الغربيين أم من ناحية مسلمي المناطق الأخرى، وأن دور الإسلام في أندونيسيا المعاصرة، ودور أندونيسيا في الإسلام المعاصر ما زال موضع التقدير متميزًا وخلابًا ومن المحتمل أن يكون وافرًا جدًا، ومن المؤكد أن والملاحظة، وحتى الإلمام الأولي يكفي لإيضاح أن ثمة شيئًا إسلاميًا متميزًا وخلابًا ومن المحتمل أن يكون وافرًا جدًا ومن المؤكد أن مزيدًا من المعرفة سينتهي إلى القول بأن الإندونيسيين إنما يكونون واحدًا من المجتمعات الرئيسية في العالم الإسلامي، في مستوى المجتمعات الإسلامية الأخرى في الهند باكستان وفارس وتركيا والعالم العربي.

وهذه المجتمعات الستة تمثل الثقافات الأساسية في الإسلام المعاصر، ويعتمد التطور الإسلامي عليها كلية. ولكل منها ذاتيتها الخاصة، ويعتبر كل منها جزءًا متممًا وهامًا في الصورة النهائية لإسلام اليوم، وليس بينها تدرج أو سلطات دينية، سواء من الناحية الشكلية أو الناحية الروحية، وليس فيها تابع ومتبوع، بل لا يعتبر واحد منها تابعًا لمجموعها.

وليس العالم الإسلامي اليوم وحدة منظمة، بل هو مركب يشمل هذه المجتمعات الستة الرئيسية إلى جانب الأقليات المختلفة، فهو وليد مشاركة

كل منها، والمشاركة وحدها، فالعالم الإسلامي هو ما صنعته هذه المجتمعات وغيرها في الماضي مضافًا إليه ما تصنعه في الحاضر وبدونها لا يكون له ثمة وجود مستقل، أو حقيقة ذاتية، ولا حتى وجود رمزي منذ زوال الخلافة سنة ١٩٢٤، أما مصيره فسيكون نتيجة لمزيج ينبض بالحركة، مزيج من ماضيه ومن التقاليد الإسلامية في مجموعها ومن حاضره المتطور، ومن التطورات المتعددة الأنواع لعدد من الشعوب الإسلامية في الوقت الحاضر.

وحتى تقاليد الماضي بعثت الآن بين هذه الشعوب الإسلامية المتفرقة، وبواسطتها وسواء أقويت مشاركتها أم ضعفت، في المركب الإسلامي الأكبر، فإنها لم تكن في كل مرحلة سوى المظهر الكامل للتطور الخاص بهذا المجتمع، ومن الحق أن نقول أخيرًا أن التاريخ الجاري للإسلام، هو التاريخ الجاري للأجزاء المتداخلة في تركيبه، وإذا كان العالم الإسلامي هو ما صنعته هذه الأجزاء فهو بمعنى آخر ما صنعته هي بنفسها.

الفصل الثامن

خاتمة

قدمنا في الفصل الأول أنه لم يكن في قصدنا أو في مقدورنا أن نتنبأ بما سيكون من تطور مستقبل في الإسلام، على أنه إذا كانت النظرة الشاملة التي ألقيناها قد صاحبها بعض التوفيق وإذا كان فيما أوردنا من وصف وتحليل شيء من الصحة فقد يؤيد هذا ما ذهبنا إليه من أن الإسلام سيكون له مثل هذا التطور في المستقبل، إنما هو دين فيه حياة وحركة، إن ثمة شيئًا وشيك الإنبثاق. ولقد عالجنا في تردد كثير ترجمة وتفسير الفصل المعاصر من التاريخ الإسلامي، وإنه لفصل هام عميم النفع، وما من شك في أن الفصل التالي سيكون أيضًا هامًا ونافعًا وجديدًا.. وإن دراستنا هذه لتحقق الشيء الكثير مما استهدفت من غرض، إذا ما إنتهت إلى بيان مدى أهمية هذه المسألة، أي خط سيضعه المسلمون التطور التالي للإسلام؟

هل سيدعونه مجرد عقيدة موروثة غامضة، يتجاذب أتباعه إخلاصهم من ناحية، والعالم من ناحية أخرى، إخلاصهم ذلك الذي يعتزون ولا يعرفون مدى مناسبته لظروفهم، والعالم الذي يحيط بهم ولا يعرفون كيف يكافحونه؟.. أم لعلهم جاعلون منه مجرد عاطفة مقفلة، ترجع بهم القهقري، من الحياة العصرية إلى تعصب فيه عنف يعطلهم ويعزلهم؟ أم

تراهم سيدنون إليه يدفعهم فعلًا إلى الحياة العصرية الحقة، ويجلب إلى نفوسهم الكمال، وإلى مجتمعهم التقدم والعدل والشرف في العالم.

وتتوقف على مثل هذه المسائل سعادة المسلمين، لا دينيًا فحسب بل ودنيويًا أيضًا، فلا سبيل إلى حل المشاكل الدنيوية بواسطة رجال يعوزهم المظهر الفكري والخلقي المناسب لحلها، وعلى الأقل فمن الصعب مناقضة أن الإسلام يتحرك في إتجاه مطابق تمامًا لجميع التطورات الأخرى.

الواقع إننا نعتقد أن ليس في العالم الإسلامي اليوم مسألة أكثر أهمية وإلحاحًا من ذلك، وهذا واضح بالنسبة للمسائل الخلقية والأدبية، كما هو حقيقي بالنسبة للمسائل الأخرى، فالمسائل الإقتصادية والسياسية، والعسكرية وغيرها التي تضغط في إلحاح وفي غير رحمة على كل من الأمم الإسلامية المختلفة لا يمكن أن تحظى بأقل مما تستحق من تقدير لدى كل من ألف هذه المنطقة أو عني بسعادة أهلها، إذ من غير المعقول أن تقلل من قدر هذه المسائل، ومع ذلك فنعتقد أن ليس بينها ما هو أكثر أهمية من المسألة الدينية، والواقع أنها جميعها تسير جنبًا إلى جنب، أن هذه العوامل المختلفة متشابكة، وهي لا تحكم مجتمعة تقدم العالم الإسلامي فحسب، وإنما يؤثر كل منها في الآخر أيضًا، ولا يترتب على الجهل بأحد هذه العوامل الرئيسية الإقتصادية أو الإسلامية أو غيرها مجرد عدم إمكان فهم التاريخ الإسلامي الحديث، بل إنه لا يمكن فهم طبيعة وتطور أي من هذه العوامل مع عدم إدراك دور العوامل الأخرى.

وفي تقديرنا، إذن، للعامل الإسلامي، فيما نحن بصدده من دراسة

للتطور الحديث في العقيدة علينا أن نفترض أساسًا للتطور المستمر في البيئة الإسلامية.. وهذا لا يتضمن فقط القوى المحلية الفعالة في كل منطقة خاصة، والتي تناولنا بعضها في سياق دراستنا، بينما تظل الأخرى موضوعًا للحدس والتخمين، بل هي تتضمن أيضًا مجريات الحوادث في عالمنا المتطور جميعه، أي التجدد المستمر في الحياة العصرية للبشرية كلها، وكان ذلك من النقاط التي توخيناها بإصرار منذ بداية التحقيق والبحث. وقد يحسن أن نذكر أنفسنا بها إذ نحن نختمه الآن، طالما أن الإسلام في كل منطقة هو في نفس الوقت مثال نوعي واحد من الإسلام في العالم الحديث المجد بوصفه كلاً واحدًا، وبينما نرى الإسلام في كل جهة يتحرك مرتبطًا بالحياة في مجتمعه، نرى العالم من حوله مثابرًا على الحركة هو الآخر.

إن اعتقادات القرن التاسع عشر، قد تلاشت أمام التعقيد المحير الذي لازم القرن العشرين وقد عاودت آسيا النهوض، وتضمن ذلك تحررًا جزئيًا تدريجيًا لأقطارها من السيطرة الأوروبية، إلا أن هذا التحرر لم يكتمل بعد، وقد بدأ يظهر أسلوب الحياة العصرية الأصيلة الأوروبية المصدر، وأخذ هذا الأسلوب في الإنتشار والتوغل في جميع المناطق بما فيها المناطق الإسلامية، وقد يكون من الصعب بالنسبة لهذا التطور، المبالغة في تقدير كيفية شموله أساسًا للمجتمعات الإسلامية متخذًا في المدن المظهر النفسي والثقافي. وفي جميع الجهات المظهر الإقتصادي والإداري، ويلازم هذا إرتباط بين أجزاء الكرة الأرضية، من مقتضاه مثلًا، إن فرصة الفلاح الباكستاني للأكل قد تتوقف على قرار يصدر في «واشنطن»، أو أن فرصة أحدنا للحياة قد تتوقف على قرار يصدر في «جنيف»، أو في «بيكين»،

وحتى الغرب، على الرغم من إستمرار قوته وغطرسته لقى تحديًا وأصيب بالذعر من جانب مجتمع آخر هو المجتمع الشيوعي وكذلك إستهدفت تركيا للتهديد من الخارج ومن الداخل.

وهكذا وهكذا، فإن شطرًا كبيرًا من التاريخ الإسلامي القريب، كانت بدايته عند الآخرين، كانت تطورات تأثر بها المسلمون، وكثير منها أدخلته القوى الخارجية إلى آسيا، ثم شارك فيها المسلمون بنشاط، وإن قدرًا كبيرًا من «الغربية»، التي جرى المسلمون على معارضتها والإحتجاج عليها فقدت خصائصها «الغربية»، وأصبحت مجرد «عصرية عالمية» إنتظمت المسلمين وأصبح رفضها بمثابة الرغبة في العزلة، أو بعبارة أخرى الزهد في الحياة في القرن العشرين.

على أن شطرًا كبيرًا آخر من التاريخ الإسلامي القريب كان استمرارًا للتاريخ الإسلامي السابق بطرق تعادل الأولى أهمية على الأقل وإن كانت أقل وضوحًا للمراقب الخارجي.ونتج عن التفاعل بين هذين النوعين، مع الحرية الإنسانية إن إنبثق الجديد في العالم الإسلامي.

ويجب أن نقدر هنا ما كان لبلوغ الحرية السياسية من أهمية عظيمة فمع الحرية تقوم دائمًا المسئولية، وقد لحظنا الإتجاه السلبي في التفكير إلى التحرير السياسي في حدود التخلص من السيطرة الأجنبية وكان هذا الإتجاه هامًا جدًا، إلا أن الملاحظة كانت إيجابية وكبيرة الدلالة على تحمل المسئولية عن المصير.

فمنذ الحرب العالمية الثانية، وكل مجتمع من المجتمعات الإسلامية

الرئيسية في العالم تشغله أموره الخاصة بطريقة عملية فعالة تتناسب ونوع العالم الذي نعيش فيه، والمسلمون كغيرهم لم يتحرروا من الضغط الخارجي وأن ما يشتغلون به اليوم من تطور إقتصادي وسياسي وإجتماعي وثقافي وروحي إنما يكون تاريخًا، هو التاريخ الإسلامي مجددًا وكاملًا.

إن معرفة الإسلام معرفة حقة لتنتهي إلى القول بأن إستقلال المسلمين لا يعني العزلة، على ما يخال البعض، ولكن تجديد القوة الداخلية ونمو النفوذ الإسلامي على بقية الجنس البشري والعكس بالعكس، فالحرية مشاركة، إذ من مظاهر حيوية العقيدة أن تنتظم كثيرًا من الرجال والمجتمعات.

وإذن، فتطور الإسلام لابد أن يظهر، بل إن هذا التطور ذو أهمية جوهرية، وليس فيما يعمل المسلمون أو يعتقدون ما يعتبر قليل الأهمية منعزلًا.

إن العمل الذي يقومون به في الوقت الحاضر ليس بالهين، لأنه يهدف إلى بناء حياة جديدة في منتصف القرن العشرين، وهو عمل شاق على قوم أعفوا من المسئولية لعدة قرون، وقد بدأ العالم ينظر بوجل إلى المشاريع المادية التي تقوم بها هذه الشعوب ومحاولتها المفاجئة في أن تعوض ما فاتها في القرون التي ذهبت هباء، فأخذت تبني السدود، وتعد العدة لقيام صناعات ومؤسسات فنية، إلى غير ذلك من وسائل العمران، وبقى بعد ذلك واجبهم من حيث الديانة والعقيدة غامضًا غير واضح، وليس العمل في هذا المجال هو الآخر بالهين أو اليسير، ولا يمكن لهم أن يعوضوا ما

خسروه في القرون السابقة.

على أنه يجب أن يتبين الإنسان على وجه التحديد معنى كلمة الدين في عالم به سدود وصناعات ومؤسسات فنية، ومسئولية الناس إزاء هذا كله، وقد يبدو الأمر سهلًا لأولئك الذين يؤثرون العيش في عزلة مستبقين مثلهم العليا وحياتهم اليومية في إطار مغلق لا ينفذ منه الماء، ولكن الواقع أن هذا ليس بالهين على ديانة يرى معتنقوها والقائمون عليها أن يطبقوا تعليماتها على كل شيء في حياتهم اليومية، وأن يخرجوا مفهوم الحياة عندهم بالمجتمع الذي يعيشون فيه، وأن يبحثوا عن العدالة، وسط عالم سادت فيه الآلات.

وقد سبق أن قدمنا أن الإسلام هام من الوجهتين، الروحية والعلمانية، فالمدنية الإسلامية تقوم على التوحيد ولا إزدواج فيها كما هو الحال في المدنية الغربية التي تعتمد على إزدواج يتمثل فيه الدين والدنيوية.

ولسنا نقرر احتمال تطور الإسلام في هذا الإتجاه، وإن الفروق الجامدة بين المدنيات لا وجود لها اليوم، فالمدنية الحديثة رغم أنها نشأت في أول الأمر في الغرب، إلا أنها آخذة في الإنتشار في العالم وأخذت تتحول أو تحل محل أشكال الثقافة القديمة في الغرب والشرق.. فالدنيوية، إذن، ولو أنها مستحدثة بوجه عام، إلا أنها لن تصبح غربية، بل عالمية تسري في كل المدنيات الأخرى، ولكي نوضح ذلك بالنسبة للإسلام يمكننا أن نقتبس المثال من تركيا، وحتى باكستان يمكن أن نرى فيها الحماسة لإنشاء دولة إسلامية، وكانت هذه الحماسة كزبد ذهب جفاء فلم يعمر بل تلاشي

نتيجة للصدمات التي نجمت عن الإضطرابات التي وقعت في سنة ١٩٥٣، وبالمثل في أندونيسيا، فإن السياستين الدنيوية والإسلامية قد تبادلتا السيطرة، وبرغم ذلك فقد بدت فيهما مظاهر الميل إلى الدنيوية، لذلك نرى أن مصلحة الشعوب الإسلامية الدنيوية لا تعتمد على تفسيرها للإسلام، بل أكثر إعتمادها على العمليات الإجتماعية والتفاعل الإجتماعي بعيدًا عن الإعتبار الديني، ولسنا نأخذ هذا في الإعتبار أو نوليه أهمية ما، ما دمنا نجهل المستقبل.. ويمكن أن تفرض الدنيوية على الناس بقوة السلاح، أو نتيجة لضغط الظروف، وهناك دليل على أنه نتيجة لإحدى هاتين الطريقتين أن الدنيوية قد انتشرت في العالم الإسلامي الحديث، ولكن من الواجب إباحتها عن طريق التوفيق بينها وبين الدين، وإن لم نتخذ هذه الخطوة لتعرض المجتمع والأفراد للكثير من الضغط، الذي قد يؤدي إلى تدمير التناسق مما قد ينتهي إلى كارثة، وإذا حكم العالم الإسلامي فرد يجمع في يديه السلطة الدينية والسلطة الدنيوية فالإجابة على هذا الإحتمال تتوقف إلى حد كبير على تفسير الإسلام.

وحتى إذا انتعشت الدنيوية، فثمة مشاكل خلقية أساسية باقية، ويميل الغربيون إلى أن نتجاهل هذه المشاكل، فالغربيون الداعون للدنيوية، يودون لو يروا المسلمين مرتدين عن دينهم وإن لم يكن ذلك، فيودون لو رأوهم يبعدون هذا الدين ويودعونه زاوية من حياتهم لا يقربونها، وأن يبنوا مجتمعاتهم كما يبنيها المتحررون، ولكن ليس ثمة احتمال لأن يتنازل العالم الإسلامي عن صفة الإسلامية وإلا كان ذلك كارثة له وللدنيا بأسرها، وأبعد من ذلك، فلن يكون المسلمون، عدا تركيا متحررين غربيين ولا

إنسانيين غربيين ولا إنسانيين متحررين على النمط الغربي.

ورأينا الخاص أن التحرر والإنسانية في العالم الإسلامي إذا قدر لهما الإنتعاش فسيوجد تحرر إسلامي وإنسانية إسلامية ولذلك يجب أن توجد الأسس لهذا كله.

إن التحررية والإنسانية حركتان عميقتان في العالم الغربي إنتقلتا إليه من اليونان القديمة ومن الإنجيل، وأثمرتا الأفكار التي سادت في القرن الثامن عشر، وتقبل معتنقوها الاستشهاد في سبيلها عن طيب خاطر، وتولد منها ثورات، وقوة عقلية مبدعة، إن المدنية العربية القديمة تبنت المبادئ العقلية في الفلسفة الإغريقية وعلومها إلى حد معين، ولكنها لم تتقبل مبدأ الإنسانية في الفن والشعر الإغريقي.. فهذا المبدأ لم ينتشر قط في المجتمع الإسلامي، إن الإسلام من الوجهة الدينية بعيد ويكرر مبادئ أساسية في المسيحية.

وفي الواقع فإن النتائج العقلية والإجتماعية المختلفة أصبحت دولية في هذه الأيام. وإنا لنرى أن دينًا إسلاميًا صحيحًا مزدهرًا في هذه الأيام ليعتبر أمرًا هامًا، لا بالنسبة للمسلمين وحدهم، بل لعالم اليوم كله، ولقد غفل عن هذه الحقيقة بعض الساسة والزعماء الغربيين، وإعتنقوا الفكرة القائلة بأن الإنسان يتأثر «بلقمة العيش» فقط، وإذا تعذر على القائمين على المدنية الغربية، سواء من الوجهة العقلية أو الإجتماعية أو السياسية أو الإقتصادية والقائمين على مبادئ الكنيسة المسيحية، إذا تعذر على هؤلاء أن يتعلموا كيف يعاملون الشعوب الأخرى بإحترام فإن الجانبين لن

يتفقا فيما يواجههما من وقائع وأحداث في القرن العشرين.

ونختم القول كما بدأناه بأن العلاقة بين الإسلام والتاريخ علاقة وثيقة، فالإسلام كعملية متطورة هو النقطة المتحركة داخل التاريخ والتي منها ينفذ المسلم خلال التاريخ ليصل إلى آخرته.. ولكن هذه النقطة باقية دائمًا داخل إطار التاريخ، ويشكلها التاريخ دائمًا. وإن دور الإنسان وسط صخب الحياة هو أن يستمع لرسالة الله ويتبين معانيها، ويفسرها.

والإسلام الذي أنزله الله ليس هو تلك العقائد والاوضاع التي يسميها الغرباء بالإسلام، بل هو دعوة المسلمين أن يسيروا في حياتهم، وكأن الله يرقبهم. وأن يعاملوا إخوانهم دائمًا بحسب ما أمرهم الله.

الفهرس